العلم الثقافي

المدير: عبد الله البقالي
سنة: 54
سنة التأسيس: 1969/2/7
الخميس 5 من ربيع الأول 1445
الموافق 21 شتنبر 2023

10 ، شارع زنقة المرج حسان الرباط
Bach1969med@gmail.com

تواصل

لا أَطْلُبُ غُفْرَانَ الرَّسَائِلْ

إلى شهداء الحوز الذين امتصوا بأطْلسهم المنيع أعتى الزلازل

محمد بشكار
bachkar_mohamed@yahoo.fr

اليَوْمَ أنْسَى لِتَكْبُرَ
ذاكرَتي في
الفَرَاغِ بِحَجْم
السَّرَابْ

اليَوْمَ أبْعَثُني مِنْ
رَميم حُرُوفِي
حَيّاً لأشْقى ، فيَا
لَيْتَ مَا كَتَبَتْهُ
يَدي
لبَيَاضِه
تَابْ !

اليَوْمَ أنْسَى
وَأنْفُضُ عَنْ كَاهِلي
حَاضِرَ الذِّكْرَيَاتِ الَّتي
قَوَّسَتْني لِيَرْتَدَّ جُرْحُ
النِّبَالِ لِقَلْبِي ، فَلا
أمْسُ أفْقِدُ في تِيهِه
الدَّرْبَ لِلْغَد ،
لا أمْسُ يَجْعَلُني
مَاضِياً مِنْ حَيَاتِي ،
أنَا لَسْتُ أمْضِي إلى
أيِّ أمْسٍ وَأتْرُكَ
حُبِّيَ وَحْدَهُ مُنتَظِراً
في غَدِي !

اليَوْمَ أنْسَى لأبْدَأَ
مِنْ آخِرِي أوَّلِي في
سَدِيمِ الخَلِيقَة. أمْحُو
وَأهْطُلُ مِنْ أعْيُنِي
مَطَراً في سُيُولِهِ تَجْرِي
الشَّوَارِعُ تَحْمِل
في كَفِّهَا مَوْعِدِي.
اليَوْمَ أكْنِسُ أحْذَقَ
مِنْ خِفَّةِ الرِّيحِ تَنْفُضُنِي
أثَراً لَيْسَ يُفْضِي إلى
أيِّ عُنْوَانْ

اليَوْمَ أغْسِلُ أجْعَلُ
مِنْ قَلَمِي عَامِلاً
لِلنَّظَافَة. أفْقِدُ وَعْيِي أدُوخُ
تَمِيلُ المَبَانِي وَتُطْوَى
السُّقُوفُ وَفِي
طَيِّهَا قَامَتِي ، صَارَ
ذَقْنِي حِذَائِي ، فَلا يَخْرُجُ
البَابُ إلَّا لِيَدْخُلَ بَاباً وَفِي
كَهْفِ إبْطِه نَافِذَةٌ تَفْتَحُ الدَّفَّتَيْنِ
لِيَصْطَفِقَا بِالصُّرَاخِ:
وَأحْرِقُ أهْدِمُ أجْتَثُّ
أَلْفُظُ أجْزُرُ مَدّاً وَأمْتَدُّ
جَزْراً كَمَا لَوْ
تَجَشَّأ بَحْرٌ ، وَأقْطَعُ
عِرْقاً لأفْرِغَنِي
مِنْ دِمَاءٍ وَأمْلأنِي
بِالهَوَاءِ لَعَلِّي إذَا طِرْتُ
تَلْمَسُنِي في الحَضِيضِ
سَمَاءٌ..

لوحة للفنان التشكيلي المغربي محمد السالمي تؤرخ لفاجعة زلزال الحوز، وهي بتقنية الألوان المائية - Àquarelle .

إدريس الملياني

أَمزْمِيزُ قَبْلَ وَبعْدَ قليل

« هي ميتة واحدة خير من موت يتكرر»

محمد بشكار «افتتاحية «العلم الثقافي» 2023/9/14

أَمزْمِيزُ قَبْلَ قَلِيل
أَمزْمِيزُ بَعْدَ قَلِيل
مَقَابِرُ مِنْ دُونِ مَوْتَى
وَمَوْتَى بِغَيْرِ قُبُورْ!

..

أَرَبُّ الْمَنَازِل
«أَوْحَلَهَا» بِالزَّلَازِل
أَمْ قَدَرٌ جَائِرٌ
وَقَضَاءٌ أَجِيرْ !

..

بُيُوتُكَ يَا رَبَّهَا
مَا ذَنْبُهَا
حَقَّ أَمْ عَقَّ عَلَيْهَا الدَّمَارُ
وَبُؤْسُ الْمَصِيرْ !

..

وَمَا كُلُّ هَذَا الْحُطَام
قَد ارْتَدَّ إِلَى جَاهِلِيَات
جِنَانِ الْخِيَام
وَمَقْصُورَاتِ وِلْدَانٍ وَحُورْ!

..

وَمَا ذَنْبُ هَذِي الْقُرَى الْآمِنَات
الَّتِي لَا فَوَاحِشَ فِيهَا
وَلَا أَكَابِرَ مِنْ مُتْرَفِيهَا
يُمَرَّغُ أَنْفُهَا بِثَرَاهَا الْحَقِيرِ الْحَصِيرْ !

..

وَمَا هَؤُلَائِكَ يَبْتَهِلُونَ إِلَى قَاتِلِيهَا
وَيَلْتَمِسُونَ الْعَدَالَةَ مِنْ مَلِكِ الْجِنِّ
شَمْهَرُوشِ الرَّجِيمِ الرَّحِيمِ بِمَوْتَاهَا
الْمُشَيَّعِينَ عَلَى ظُهُورِ الْحَمِيرْ !

..

وَسُبْحَانَهُ ،انْفِجَارُ سَلْسَبِيل
بِوَادٍ مِنَ الدَّمْ..ع ، لَمْ يَكُنَّ
فِي أَمَزْمِيزَ قَبْلَ قَلِيل
لِيَرْوِيَ أَمَزْمِيزَ بَعْدَ قَلِيل !

..

وَغُفْرَانَهُ ،شُكْراً لَهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ
بِضَاعَتُهُ رُدَّتْ إِلَيْه
وَذَلِكَ مِثْلُ كَيْلٍ وَحَمْل
بَعِيرٍ ثَقِيلٍ يَسِيرٍ عَسِيرْ !

لوحة للفنان السوري هيثم الصائغ

رشيد سوسان

شُهداء الأطلس

لَثموا الثَّرى ،وَاستَسلَموا بتَوَدُّد
لِقَضاءِ رَبّ العالَمينَ الأَخْلَد

نَزَلوا ضُيوفاً ،في رِضاً ،وَتَرَجَّلوا
عَن أَهلِهِمْ ،وَتوَحّدوا في المَورِد

سَقَطوا ،بِلا طَوْعٍ ،بِعُقرِ دِيارِهِم
وَبِطَوعِهِم جَعلوا الدّيارَ كَمَعهَد

لَثَمتْهُمُ الجُدرانُ في حُبٍّ ،وَهُم
قَد عانَقوا ،وَجْداً ،قَضاءَ الأَوْحَد

هَبّت منازِلُهُم ،وَأَحرَمَ أُسُّها
وَنَوى الأهالي فَرضَهُم بِتَهجُّد

طوبى لَهُم في حَلِّهِم وَرحيلِهِم
فَقَد اصْطَفاهُم رَبُّهُم لِلمَوعِد

طوبى لهم في العالَمين ،فَقَد رَقَوا
شُهَداءَ ،في شَوقٍ ،لِحَوضِ مُحمّد

وَطني الأَعزّ ،دِيارُنا في عِزّة
سَتُنيرُ دَرباً لِلعُلا في سُؤدَد

لَبّيكَ يا وَطني الأَبِيّ فَشعبُنا
في هِمّةٍ قَد هَبَّ يَبْني لِلغَد

يا أَيُّها الشّعبُ المُرابِطُ في القُرى
قَد كُنتَ في المَيدانِ أَعظَمَ مُنجِد

وَرسَمتَ لِلدُّنيا عَزائِمَ هَبَّةٍ
نُسِجَت مَكارِمُ غَزْلِها بِتَفرُّد

فَعزاؤُنا ،بَلَدَ الشّهادةِ ،واحِدٌ
بِالصّبرِ نَمْحو كُلَّ رُزءٍ أَنكَد

يا ربِّ فَارحَم مَن قَضى ،واغْفِر لَهُم
وَاجْعَل مُقامَهُمُ كَأَهلِ الغَرْقَد

زعفران بلادي

حسن برما

أن تهديك شعيرات زعفران
وهي تبكي أطلال عُمْرٍ راح
وَعْدٌ من قلبها الجريح
لن يهزم الزلزال سخاء نبضها
ذات زمن بلا أسماء
فوق سطحٍ
أطلَّ على سفح البعيد
يبست أزهار الحلم
وبأصابعها النحيلة
انتزعت الشعيرات الذهبية
عِطرها المتوحش
خبأته في العش الدافئ
يوما ما
تشتري بثمنه أمْنِية
وهدايا لأحبة جرفتهم الآلام
وفي صدري
عربون حب
لمن زار شقوق الجبل الحزين
وفوق الرأس بياضُ حُزنٍ
آهاتُ ثَكلى
بقايا أوشامٍ
تروي لحبيب مات
حماقة زلزال
لم يرحم
لحظة فراق دون وداع
فلا تبكي الفقدان يا أمي
لا تيأسي
ما راح سوى القليل
وأبرياء الدمع الساخن
يمسحون دمعك
ويقولون
للذكرى
سنابل حب قادمة
تخترق صخر الفاجعة!!!

حسن مزهار

رسالة إلى الزلزال من تحت الأنقاض

افعل ما تشاء
ما تستطيع يداك أن تحطمه
أن تقذف به بعيدا
حرك
برجلك
و بخيلك
و بكل رياحك
و بما لديك من عفاريت
و من هداهد
و من دواب الأرض
هذا الأمل لدينا
وذاك الرجاء
فلن تهتز منا شعرة
من خوف
أو خوف
أو خوف من فناء
لن نموت جماعات
لن نموت فرادى
و أشتاتا
لن تعدم سماؤنا الضياء
هز بما لديك من قوة
من تحت أرجلنا
من فوقنا
من خلفنا
و من وراء
هذه الأرض التي تحضننا كل ليلة
كي ننام
كي نحلم بمجيء الربيع
من بعد عام خريف مضى
وآخر يمضي من شتاء
لن نموت منك هلعا
أو جبنا
أو من حزن وبكاء
لا
سنحيا كما عهدتنا
في كل نوبات غضبك
أقوياء
سنعيد لأرضنا سيرتها الأولى
وجها مشرقا بهاء
في بهاء
سنعيد للأمهات فرحة
عناقنا عند كل لقاء
ونمسح عن جبين كل والد
غضون الشقاء
وإن متنا
فلنا رب كريم
ونحن عنده من بعد موتنا
شهداء !

ذات غضبة لزلزال الحوز 2023

عبد القادر العلمي

شبح على عرش نابليون

شَبَحٌ ضَئيلُ الحَجْم
لا تَكادُ تَراهُ العُيُون
رَاوَدَهُ الحُلْمُ
باعْتلاءِ عَرْش نابُلْيُون
أشْعَلَ من حَوْله
أضْواءَ النِّيُون
لِيَلْتَفتَ النَّاسُ لطَلْعَته
في شَكْل فارس مغوار
يَبْحَثُ عن مَوْقِعٍ
في مَوْسم
يَغْمُرُهُ الحُزْن
ورَائحَة المَنُون
حَاوَلَ أن يُغَرِّدَ
من منْبَر طَوَاهُ الزَّمَان
دَفَنَتْهُ السِّنُون
لم تُسْعفْهُ العبَارَةُ
انْزَلَقَ لسَانُه
في هُوَّة الجُنُون
لهْجَتُهُ مَلْفُوفَةٌ
في صَوْلَةٍ مَفْقُودَةٍ
وصُورَةٍ نَبَذَتْهَا العُيُون
يَبْحَثُ الشَّبَحُ
عن صَدَى صَوْته المُتَعَالي
يَرَاهُ مُنْكَسرًا
بَيْنَ مَوْجَات الغَضَب
وأغَاني التَّحَرُّر
في ضِفَّة الجَنُوب المَصُون

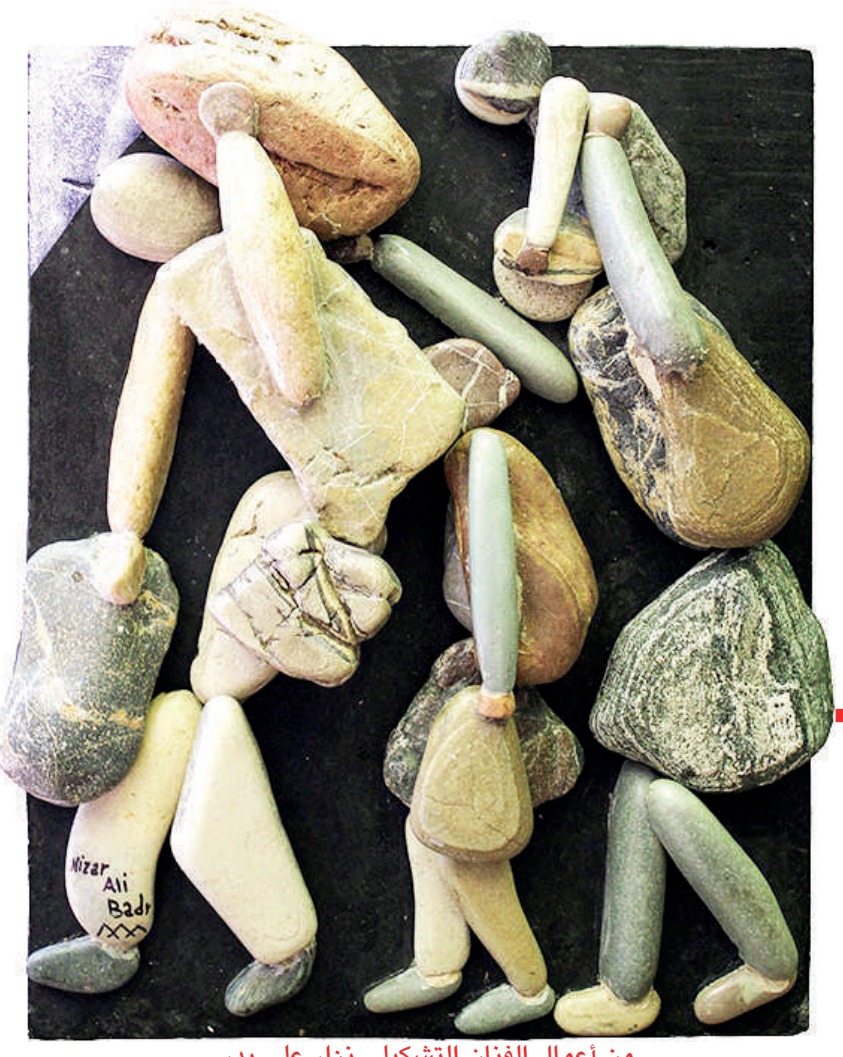

من أعمال الفنان التشكيلي نزار علي بدر

روح المنام

عبد العزيز حاجوي

قرية الأنبياء
تنام الآن
تغترب النجوم
كف تمحو ما تبقى من جرح في السماء
هل هناك روح في المنام؟
لم تقل شيئا

أجنحة طائر البحر
يهوي الى الماء
يلتقط النجم الغريب
صياد الموت
لم يعد بعد الى اليابسة
اكتأب في بحر الناس

مل وظيفته
مل سلالة الموت
وسلال الحياة!
فوق رأسه حلق طائر البحر
تسلل إلى أحلامه
تسلم روح المنام!

محمد شاكر

الشروخُ اعْترتْ كَلماتي..

من أعمال الفنان التشكيلي المغربي محمد السالمي

حُروفُها لا تَنْبَني في حائط لِلْمَعْنى؛
كي أُعيدَ تَرْميمَ سُكْنى ،
هَدَّهُ الزلزالُ.
أُفْشي جِراحَ الوَطَنِ.
لِمَنْ شَرَخَ الزلزالُ أواصِرَهُم ،
في الأَطْلسِ الْعَصيّ.
وأَلُمُّ شَتاتَ السَّلَفِ الْبَعيد.
دونَ تَشَرْذُمِ الحِجارةِ ،
والأَحْقابِ.

كَفْكفتُ دُموعَ نَصٍّ
خانَهُ النَّشيجُ؛
لم يُبْدِ غَيْرَ الْحَسَراتِ؛
يَكْتُمُ أَنْفاسَها الهَديرُ.
وذَرفْتُ دُموعَ قلبٍ ،
لا تُرى ،في ضآلَةِ حالي.
وعَجْزِ البَيانِ.
لُذْتُ بالفَجيعَةِ ،
أَسْتَقْصي أَحْوالَ أَهْلٍ وصِحابٍ؛
بِعَيْنٍ يُوجِعُها مَحْوٌ ،
سَوَّى الأرضَ ،(فَألْقَتْ ما فيها) ،
وتَخلَّتْ عَنْ شاهِقِها ،
وبَنيها ،في عَتْمَةِ الأنْقاضِ.

فَمي شَلَّه الْخَرَسُ.
والشروخُ تَكْبرُ في الْكلماتِ؛
رَدمَتْ ما تَعتَّق في الرُّوحِ ،
مِن فَيْضِ إحْساسي ،
وأقامَتْ بَشاعَةَ الدَّمارِ.

الشُّروخُ أصابتْ كَلماتي ،
فَهوَتْ مِن شاهِقِ الإفْصاحِ.
لكنَّ بَلاغَةً أُخرى ،
خَفَّتْ مِنْ أقاصي الْبِلادِ ،
ودانيها.
لَمْلَمَتْ أَطْرافَ الجِهاتِ ،
جَرفتْ يَبابَ الأَرْضِ ،
فَجَّرتْ يَنابيعَ حُبٍّ ووفاءٍ ،
لأَمْتْ غَوْرَ الجِراحِ؛
وفَكَّتْ عُجمَةَ الْكلماتِ.

بِتَكافُلٍ مغْربي.. لا أبْهى .
ضَمَّهُ التَّاريخُ العامِرُ ،
بالإباءِ والمَكْرُماتِ.

لا حاجَةَ لي ،بِما تَداعَى مِن كَلماتٍ؛
تَزيَّتْ بِشَتَّى الأَلْوانِ؛
بَعْضُها بِخُبْثٍ طَوِيَّةٍ ،
وأُخْرى بِحُسْنِ نيّاتٍ.
يَكْفيني الْيَوْمَ ،أنّي رأيتُ الحُبَّ ،
في وَطَني يَسْعى
بِصدْقِ إحْساسٍ ،
وسَخاءِ يَدٍ ،
وفائِضِ الإيثارِ.
يُعْلي لِواءَهُ أحْبابيَ البُسَطاءُ ،
تَقاسَموا قَليلَه ،
وراوغُه مَنْ تَدثَّر باللُّؤْمِ ،
احْتَكَرَ الْكَثيرَ ،
وَخانَ الْبِلادَ.

مكناس: 13.09.2023

العلامة محمد بن تاويت الطنجي

إضاءات حول شخصيته وتراثه

نجاة المريني

استهلال

محمد بن تاويت الطنجي من الأعلام الباحثين المحققين في العالم العربي والإسلامي، عَرَفَتْه مراكز البحث منقبا عن ذخائر المخطوطات الغربية في الخزانات المغربية والمصرية والتركية، باحثا عن دُرَر هذا التراث ،مكتشفا لمكنوناته بروية وحسن تدبر ،وقد أمْلَتْ عليه قراءاته الأولية ومداومتُه عليها أن أصبح من خبراء التراث الإسلامي ، مقتفيا خطى محققي النصوص العربية في مصر من أمثال الشيخ محمود شاكر وعبد السلام هارون وغيرهما .

ولولوعه بهذه المخطوطات كمادة أولية للبحث والدرس ،انصبَّ عمله على تفكيك خيوطها وفك رموزها وتتبع مظانها في الخزانات العربية والتركية ، متنقلا من منطقة إلى أخرى ، وازعُه تحقيقُ ما شغفه منها ليزرع فيه حياةً جديدة بعد أن عاش نكسة الغبن – أي غبن المخطوط – في عصور سابقة وبقي ركاما في رفوف هذه الخزانات ، فأحيى ما استطاع إحياءَه بجهد الباحث المحقق ؛الشغوف بما كان لهذا التراث من مكانة في صناعة حضارة الثقافة الإسلامية والعربية في عصور سابقة باقتدار وكفاءة وجرأة وشجاعة ، فعالَمُ تحقيق النصوص التراثية ليس ميسرا للجميع ، ولا يُبْحرُ فيه إلا من توفرَّتْ فيه شروط المحقق الأمين كما أكد ذلك منظرو علم التحقيق ، ومن ثم فهو من رواده ومفخرة علمائه مشرقا ومغربا .

لم يحظ محمد بن تاويت الطنجي بترجمة وافية لحياته وتنقلاته وهجرته من المغرب إلى القاهرة وأنقرة وإستانبول ، وإنما هي ترجمات مختصرة، منها ما كتبه للتعريف به الأستاذ عبد الله الجراري في كتابه « التأليف ونهضته بالمغرب في القرن العشرين « (1) فقال عنه : « ابن تاويت الطنجي من أكبر الباحثين ،وأنشط المحققين الذين لهم جولاتٌ علميةٌ وفنيةٌ في شتى الموضوعات الثقافية ، نشأ نشأةً علميةً في بلده طنجة ثم رحل إلى الشرق في سبيل تحقيق بعض الكتب ، واتصل بالبيئات العلمية فحاز تقديرها بما قام بتحقيقه من الكتب المنشورة تحت إشرافه ...وأرى أن السيد ابن تاويت لو بقِيَ في المغرب لأفاد المعلمة المغربية خصوصا والموسوعة العالمية عموما بما يتوفر عليه من نشاط علمي، وولوع بالبحث والتحقيق».

كما ترجم له ابن عمه محمد بن تاويت التطواني ترجمة باهتة في معلمة المغرب فقال عنه (2):» ظهرت نجابة المترْجَمُ له في القرويين في دروس النحو والتوحيد ... وانقطع إلى شيخنا العَلَمي انقطاعا كليا ،يخدمه بانتساخ كتبه ...بَعد هذه المرحلة ذهبنا معا في بعثة علمية إلى مصر، حيث التحقنا بكلية الآداب .... ويتابع قائلا : لم يكن في محمد بن تاويت الطنجي عيبٌ إلا أنه كان ينشدُ الكمال في الناس .. فهو رجل قد قدَّر الناسُ قدرَهُ وأحبه علماءُ الأتراك واحترموه في وزاراتهم وجامعاتهم « .

وحاولت الرابطة المحمدية لعلماء بالمغرب من خلال مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث سنة **2008** ، التعريف بالعلامة ابن تاويت الطنجي ، لكنه كان تعريفا باهتا ، لم يُوفه حقه ، لكن صاحب كتابة هذه الترجمة لم يشر إلى اسمه . كما أن تعريف الزركلي أيضا كان باهتا مع أن الزركلي كان متميزا في كتابة التراجم في كتابه الأعلام .

وكتب عنه الأستاذ عبد اللطيف شهبون الأستاذ بكلية آداب تطوان في جريدة الشمال التي تصدر بطنجة ، للتعريف به وبعطائه سنة 2000، لكنني لم أنجح في الحصول على هذه الجريدة.

ولعل أهم منجز عُنِي بالعلامة محمد بن تاويت الطنجي تلكمُ الندوةُ العلميةُ التي أقامتهَا جمعية مكتبة عبد الله كنون ومجلة مواسم للثقافة والإبداع بطنجة في رحاب مدرسة الملك فهد العليا للترجمة خلال يومين دراسيين بتاريخ 16، 17 مايو 1997 ،فألقت بعض الأضواء على حياة هذا العلامة مع ارتسامات بعض العلماء الذين اتصل بهم وعرفهم في تركيا أو القاهرة ،فكتب عنه من المغاربة الأستاذ عبد الوهاب بن منصور ومحمد بن شريفة ومحمد الكتاني وعبد الكريم غلاب ،وبنسالم حميش وعبد السلام شقور ومحمد كنون الحسني وعبد الصمد العشاب ، ومن المشارقة إحسان عباس ، عزة حسن، أبو القاسم كرو، إبراهيم شبوح.

وصدرت أعمال هذه الندوة في كتاب عنوانه « الكتاب التكريمي عن فقيد العلم والتراث محمد بن تاويت الطنجي ، وصدرت ضمن منشورات مدرسة الملك فهد العليا للترجمة بطنجة، جامعة عبد المالك السعدي سنة 1998 .

في هذا الكتاب التكريمي ترجم له الأستاذ محمد كنون الحسني في موضوع عنوانه « العلامة محمد بن تاويت الطنجي : جوانبُ من حياته ونماذجُ من رسائله «(3) ، فعرَّف به وبأسرته وعلمه ورحلته إلى الشرق، كما عرَّف به الأستاذ عبد الصمد العشاب في مقال عنوانه « ترجمة الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي» (4)، وتميزت هذه الترجمة بوضع لائحة لأعماله وتحقيقاته ، مما يساعد على الاقتراب من هذا العلامة وأعماله في ميدان التحقيق .

وفي سنة 2011 أقامت كلية الإلهيات بأنقرة إحياء ذكرى ابن تاويت الطنجي تقديرا لهذه الشخصية العلمية التي خدمت التراث العربي والإسلامي من خلال المخطوطات التي اطلع عليها وحقق بعضها وترك مشاريعه العلمية بخزائنها عسى أن ترى النور مستقبلا .

نأمل أن يُحتفى بهذا العالم المحقق في الجامعات المغربية تذكيرا بعطائه وتعريفا به للشباب الذين لم تتح لهم الفرصة للتعرف إليه في دراساتهم ، كما نأمل أن تعمل وزارة الثقافة على إعادة نشر تحقيقاته في المغرب ،وعلى ربط الصلات مع كلية الإلهيات بأنقرة ومعهد المخطوطات بإستانبول حيث مشاريع تحقيقاته تنتظر من ينظر فيها ويعمل على إصدارها. دون أن أغفل تقديم شكري لوزارة الثقافة التي عملت على الاحتفاء بهذا العلامة في هذه الجلسة العلمية في إطار الدورة الثامنة والعشرين لمعرض الكتاب هذه السنة 2023 ، وأن تعمل على نشر عروض هذه الندوة في مؤلف يضم شتاتها مع استكتاب أساتذة آخرين للمشاركة في هذا المؤلف .

من هو محمد بن تاويت الطنجي ؟ : 1911ـ 1974

سأحاول لملمة خيوط التعريف بالعلامة محمد بن تاويت الطنجي كما استقيتها مما كتب عنه فأقول :

محمد بن تاويت الطنجي من قبيلة وادراس الريفية بشمال المغرب ،من بيت علم وفضل وجهاد للمحتل الإسباني ، وكان والده محمد يعمل إلى جانب الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي الذي انتدبه لشغل منصب قاض شرعي في قبيلته ، لكنه سيرحل رفقة أسرته إلى مدينة طنجة بعد نفي الأمير الخطابي وسيستقر بها مشتغلا بالدرس في مساجدها ،زاهدا في الدنيا ومساجدها .

ولد محمد بن تاويت الطنجي في قبيلته وادراس سنة 1911 كما ذكر مترجمه ابن عمه محمد بن تاويت التطواني ،واختلفت الأقوال فقيل سنة 1918، والتحق بكتاب القرية فحفظ القرآن الكريم وبعض المتون الفقهية والنحوية ، وسينتقل مع والده إلى طنجة ليكب على الدرس عند بعض علمائها، ولشغفه بالعلم سيرحل إلى مدينة فاس سنة1931 للارتواء من معين علوم جامعة القرويين وعلمائها رفقة ابن عمه محمد بن تاويت التطواني (ت**1993**)، وهناك تفتقتْ قريحته ليجد عند علماء القرويين أمثال العلامة أقصبي وابن الخياط وجواد الصقلي ما كان يصبو إليه من زاد معرفي وتراثي ، وأحكم اتصالَه بالفقيه محمد العلمي الذي لازمه كثيرا في حلقات دروسه وانتفع بغزارة علمه ، ولعل ما زاده ارتباطا به هو الثقة التي حَظِيَ بها عند شيخه العَلَمي ،إذ كان يكلفه بانتساخ كتبه ، ولعل هذا العمل هو ما شجعه على الاهتمام بالمخطوطات خاصة عندما وجد في عملية استنساخ كتب شيخه مادةً ثريةً ستدعوه استقبالا للتهمُّم بالمخطوطات والبحث عن نفائسها في جامعة القرويين وفي دار الكتب المصرية بالقاهرة ثم بخزانات أنقرة وإستانبول .

وبعد فترة الطلب بالقرويين سيشتغل بالتعليم سنة 1936 بالمدرسة الأهلية بتطوان، وسيشارك مع زملائه في تصحيح ملازم كتاب « النبوغ المغربي للعلامة عبد الله كنون» وكان ساعتها يُطبع بالمطبعة المهدية بتطوان والذي سينشر سنة 1937 ، ووجد في ذلك ضالته من البحث والتنقيب ، لكنه في سنة 1938 سيشد الرحلة إلى القاهرة ليتابع تعليمه العالي فالتحق بكلية آداب القاهرة بقسم التاريخ أو الجغرافيا ثم انتصر للالتحاق بقسم اللغة العربية مع زمرة من رفاقه المغاربة منهم ابن عمه محمد ابن تاويت التطواني وعبد القادر السميحي ومحمد الريفي ، ضمن بعثة مولاي الحسن بن المهدي العلمية ، وحصل على الإجازة بتفوق سنة 1943 ، «ونال جائزة الشرف من الملك فاروق ملك مصر» (5) ، وسيشرف على رسالته لنيل درجة الماجستير الأستاذ أحمد أمين الذي اقترح عليه موضوع « تحقيق مقدمة ابن خلدون» ، وكان هذا الموضوع طريقةً للانغماس في عالم المخطوطات وأثبتَ قدرتَهُ على تناول الموضوع بمعارضته بنسخه المتوفرة مصححا ومعلقا وشارحا .

واهتماما بابن خلدون وهو بعدُ في طور تحقيق رسالة الماجستير انتدبته جامعة الدول العربية أول إنشائها لمعهد المخطوطات العربية « لحضور مؤتمر المستشرقين في لندن سنة **1945**، وهي نفس السنة التي انتقل فيها إلى تركيا للعمل أستاذا بكلية الإلهيات بأنقرة «(6). وشغفا بابن خلدون أقدم على تحقيق مؤلفه « التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا»، وصدر ضمن منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة التي كان يشرف عليها الأستاذ أحمد أمين سنة 1951 ، وتتابعت نشراته سنة 2000، **2004** ، **2009**، كما اهتم بتحرير هذه الرحلة والتقديم لها الأستاذ نوري الجراح المشرف على سلسلة الأدب الجغرافي فيما يعرف بارتياد الآفاق ،وصدرت سنة 2009 (7) .

ومن أساتذته بالقاهرة الأستاذ أمين الخولي (8) « وكان يتميز بالدقة

في البحث والتنقيب عن الشارد من المعاني والأفكار ، فهو يجمع بين فكر الأزهري المدقق والجامعي المتحرر»، وعلى هذا النهج خطا الأستاذ ابن تاويت الطنجي خطوات موفقة في البحث والتنقيب والتفكير في كل الأعمال التي أنجزها تحريا وضبطا ومساءلة بعيدا عن الأحكام الجاهزة كما عرف عنه ، والأرجح أن نزاهة المحقق وإنصافه الحقيقة في عمله لقيا كل تقدير من جانب أساتذته وأصدقائه من كبار العلماء والكتاب في مصر والمغرب وتركيا .

وللإشارة فإن صفة الطنجي التي عُرف بها الأستاذ محمد بن تاويت تعود إلى التمييز بينه وبين ابن عمه ابن تاويت التطواني ،وقد جمعتهما حلقة الدرس بكلية آداب جامعة القاهرة (جامعة فؤاد الأول) ، أما صفة الإمام التي كان يدعوه بها صديقه د. عزة حسن ، فتعود كما يقول (9) : « إلى أنه كان يُجَلي في الحديث على اختلاف معانيه وتشعّب مجاريه في كل وجه من الوجوه في أصناف المسائل بكلام عذب كالماء الصافي يتدفق من ينبوع ثرٍّ غزير، ولذا صار الناس ينادونه بالإمام الطنجي جريا على عادة المسلمين الأولين في تبجيل علمائهم «،أما عن أخلاقه وعلمه فيضيف الدكتور عزة حسن(10) :» رجل العلم والأخلاق ، عرفتُه رَضِيَّ النفس ، صادق الصداقة ، خالصَ الود والمحبة ، يؤثر السكينة والهدوء ، صموتا عن الخَنى وهُجر الكلام ...عفيف اللسان والنفس واليد ، كان قارئا كبيرا، راهبا في أقسام المخطوطات بالقاهرة وأنقرة وإستنبول «جنة المخطوطات العربية والإسلامية « ... كان مغرما غراما شديد ا بآثار تراثنا القديم في مختلف علومه وفنونه ، ويتتبعها في كل مكان ويسعى للاطلاع عليها ، وكان لذلك على علم واسع بذخائرها ونفائسها المكنونة في خزائن العالم فأحيى جملة من مآثرها بشغف وحب « .

يذكر الأستاذ عبد العزيز الأهواني وفؤاد سيد وآخرون الأستاذ ابن تاويت الطنجي عندما غادر القاهرة إلى إستانبول : « إحاطتَه العلمية وثقافته الإسلامية وصرامته العقلية وعمق نظره ، فقد كان من الرواد المؤسسين الذين جمعوا تلك المادة الجيدة الوفيرة من نفائس التراث الإسلامي التي قام عليها معهد المخطوطات العربية في نشأته الأولى ، وعرَّفوا بها فيما عُرف بالفهرس التمهيدي « (11).

وفي أنقرة التي سيفدُ إليها لتدريس علم الكلام الإسلامي بكلية الإلهيات بجامعتها سيقضي فترات خصبة من حياته العلمية رفقة الأستاذ عزة حسن ، ثم سيلتحق أستاذا بالمعهد العالي للدراسات التاريخية الإسلامية بإستانبول وقيل بكلية الآداب بجامعة إستانبول ، وسيجد في خزائن إستانبول ما يروي غلته في البحث عن المخطوطات النادرة وتصويرها والاستفادة منها .

وفي سنة 1963 سيعود إلى وطنه المغرب ليقضي فترة عمل في حقل التحقيق بالقسم الثقافي لوزارة الأوقاف ثم في وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الإسلامية وكان يشرف عليها الأستاذ علال الفاسي (ت 1974)، فطلب منه تحقيق نصوص عديدة (12)منها:

1ـ أولا : السلسلة اللغوية ، وفيها تمَّ إخراج كتاب جزء من «اختصار كتاب العين» للزَّبيدي

2ـ ثانيا : السلسلة الدّينية : ويندرج فيها كتاب « الإعلام بحدود قواعد الإسلام « للقاضي عياض ، وكتاب « الأربعين حديثا « للمنذري ؛

3 ـ السلسلة التاريخية : وعمل فيها على إخراج كتاب «المدارك للقاضي عياض» الجزء الأول .

ويشير الأستاذ محمد بن شريفة إلى تمكُّنه من أدوات التحقيق في الأعمال التي أنجز تحقيقها (13): « وقدم لها بمقدمات فيها كثير من النضج العلمي ، وفيها كثيرٌ من الجهد ، فضلا عن أنها تبقى نماذجَ للتحقيق العلمي ومنهجيته في إخراج النصوص التراثية» .

فابن تاويت الطنجي ذوعلم واسع ، يهتم بالذخائر من المخطوطات فيسعى إلى الاطلاع عليها ، مغرما بنفائسها المكنونة في خزائن العالم ولا سيما خزائن إستنبول ،كان راهبا في المكتبات النادرة كما يذكر العلماء ممن عرفهم واستأنس بصحبتهم في القاهرة أوأنقرة أو إستانبول .

وعلى الرغم من عودة ابن تاويت الطنجي إلى الوطن (سنة 1963) ،فإنه لم يكن راضيا عن وضعه المادي بالمغرب ،ولم يجد في وظيفته بوزارة الشؤون الإسلامية ما يغريه بالبقاء بوطنه ، فضيق ذات اليد ، ولا مبالاة المسؤولين برجال العلم لإنصافهم ، إضافة إلى أن زوجته التركية لم توفق في التأقلم مع المجتمع المغربي ، فكانت رحلة العودة إلى إستانبول للاستقرار بها إلى أن وافته المنية بها في دجنبر 1974 .

ابن تاويت الطنجي من الكفاءات المغربية التي استقطبتها البلاد التركية وقبلها البلاد المصرية ممَّا ضيَّع على المغرب والمغاربة هجرةَ عالم علامة له خبرةٌ كبيرةٌ في تحقيق المخطوطات فيفيد منه المغاربة طلابا وباحثين وأساتذة على اختلاف مشاربهم ،فأثر العودة إلى جامعة إستانبول ليشغل منصب أستاذ لعلوم الثقافة الإسلامية وليعكف من جديد على صحبة ذخائر الخزانات التركية بحثا وتنقيبا واكتشافا إلى أن وافته المنية بعيدا عن وطنه ،عن أهله وعشيرته .

إن هجرة هذا العالم الكبير ليؤكد لنا مع مرور الوقت أن من أسباب هجرة الأدمغة المغربية اليوم يعود إلى تهميشها وإلى التضييق على الكفاءات العلمية التي تستقطبها الدول الغربية كأمريكا وأوروبا وآسيا وغيرها لتستفيد من خبراتها ،والأدلة على هذا الكلام واضحة للعيان، في الوقت الذي نحن في بلدنا في حاجة إليها بعد سنوات التكوين والإعداد عبر المراحل الدراسية في الوطن وخارجه.

ترك المترجَمُ له مكتبة نادرة تضم أنفس المخطوطات العربية والإسلامية ،(14): « تضم ذخائر مقتنياته ونفائس منتجاته ...وقد كثر الحديثُ عن مكتبته وكتبه، وقيلتْ في شأن هذه وتلك أقوال، وحيكتْ حكاياتٌ لا تخلو من مبالغات ومغالاة ، وأشفق الجميع من أن يبقى تراثه العلمي بدار الغربة مثلما بقي بها جثمانه ، واتجهت الأفكار والأنظار إلى جلالة الملك ليعمل على إرجاع تراثه الفكري إلى المغرب لقاء ما قوّمتْ به من ثمن يؤديه من ماله الخاص « .

وعلى الرغم من مساعي الحكومة المغربية لاقتناء خزانته العامرة إلا أنها باءتْ بالفشل، لأن المعهد العالي للدراسات التاريخية بإستانبول حرص على اقتنائها مقابل توفير بيت للسكن ومبلغ من المال لأرملته وابنته .

مؤلفات العلامة محمد بن تاويت الطنجي

ـ حقق كتاب « التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا « لابن خلدون، وهو أشهر مؤلفاته ،وصدر عن لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة سنة 1951، وتتابعت نشراته فيما بعد ضمن دور نشر عربية وغيرها ، يقول عنه الدكتور نوري الجراح في إعادة تحريره للكتاب (15) : « كان عمل ابن تاويت الطنجي من الدِّقة العلمية والإشراق الفكري حيث أعاد بناء الكتاب بناء جديدا استدرك معه كل التغييرات والإضافات والشروح والملاحظات التي دوَّنها ابن خلدون على مدار سنوات...وكلها تقع في باب استدراك العالم القلق فكرُه، والمفكر الناقد .... لقد كان عمل ابن تاويت الطنجي ومراجَعاته للنسخ المتعددة لكتاب التعريف كما وضعها ابن خلدون عمل عالم متأنٍّ وباحث يتطلع إلى الأكمل مؤملا أن يكون تحقيقه « للتعريف» أقرب إلى الصورة التي ربما طمح إليها ابن خلدون « ،كما عمل الأستاذ إبراهيم شبوح على إعادة النظر في كتاب « التعريف» بتحقيق ابن تاويت الطنجي سنة 2009، كما عمل على تحقيق مقدمة ابن خلدون وكذلك تحقيق تاريخه العبر مع الدكتور إحسان عباس .

ـ حقق كتابَ « المكاثرة عند المذاكرة « تصنيف جعفر بن محمد الطيالسي ، من علماء بغداد الثقاة (ت282هـ) ، والكتاب جزء صغير في باب الشعر والشعراء ،نشر بمجلة معهد الدراسات الشرقية بإستانبول ، العدد الأول سنة 1956 ،يقول الطنجي في مقدمة الكتاب :» والمؤلف تحت تأثير القصد إلى الفخر والمغالبة كان منساقا إلى حشد جمهرة من الأسماء ليحقق غرضه ... وقد كان كتابه بعد أن عُرف،مؤخرا مصدرا استفاد من مادته الباحثون المحدثون « ، أما مؤلف الكتاب فيقول :» هذا كتاب فيه إغرابٌ على كثير من ذوي الآداب : جمعت فيه طرفا من أسماء الشعراء وألقابهم التي يتعارفها الناس ما بينهم ، وأضفت إلى ذلك أسماء تشابهُها ، وألقابا تجانسها ، مما جمعته على مرِّ الأيام من درس الكتب ومجالس شيوخ الأدب وسميته كتاب المذاكرة عند المكاثرة ، إذ كان المذاكَرُ به مكَاثرا بما يُزاد عليه مما لا يعرفه ..» ؛

ـ حقق كتاب « شفاء السائل لتهذيب المسائل» لابن خلدون : وهو كتاب يهتم بالتصوف والنظر فيما وراء الطبيعة وهو مساهمة في المناظرة التي شارك فيها حول الموضوع ، طبعته كلية الإلهيات بإستانبول سنة 1957 ، كما طبع مرات عديدة بتحقيقات مختلفة ؛

ـ حقق الجزء الأول من كتاب « ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك» للقاضي عياض المتوفى سنة 544 هـ ، وصدر ضمن مطبوعات وزارة الأوقاف المغربية سنة 1965 ؛

ـ حقق كتاب « الإعلام بحدود قواعد الإسلام « للقاضي عياض ، نشرته وزارة الشؤون الإسلامية سنة 1964 ثم أعيد طبعه سنة 1981 ؛

ـ أربعون حديثا في اصطناع المعروف لأبي محمد عبد القويّ المنذري المتوفى سنة 256هـ،علق عليه وقدم له محمد بن تاويت الطنجي ،وصدر ضمن منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الإسلامية بالرباط سنة 1985؛

ـ حقق كتاب « تحديد نهايات الأماكن لتحديد مسافات المساكن « لأبي الريحان محمد البيروني المتوفى سنة 440هـ ، وطبع بأنقرة سنة 1960 (16)، وهو كتاب جغرافي هام؛

ـ حقق كتاب « أخلاق الوزيرين « لأبي حيان التوحيدي (ت 414 هـ) ، وهو كتاب في الأدب والنقد ، صدر ضمن مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق سنة 1965 (16) ، كما صدر ضمن طبعة دار صادر ببيروت سنة 1992 ؛

ـ حقق كتاب « جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس وأسماء رواة الحديث والأدب وذوي النباهة والشعر « لأبي عبد الله محمد الحميدي (ت 528هـ) ، طبع بمطبعة السعادة بالقاهرة سنة 1953 (16)؛

ـ أول من اكتشف مخطوط كتاب « المقتطف من أزاهر الطرف « لابن سعيد الأندلسي المتوفى سنة 684هـ ،وإنصافا للأستاذ ابن تاويت الطنجي ، فقد جاء في خاتمة الكتاب المطبوع نص رسالة خطية أوردها محقق الكتاب الأستاذ سيد حنفي من الأستاذ ابن تاويت الطنجي إلى الأستاذ عبد العزيز الأهواني يخبره بحصوله على نسخة أو جزء مفصل من « كتاب المقتطف « بمقدمة صاحبه يقول فيها :» ولما كمُل هذا المجموعُ كمال البدر في إشراقه واهتز اهتزازَ الغصن في أوراقه ، وآن إخراجُه للوجود ، سميته: كتابَ المقتطف من أزاهر الطرف ، وبالله الإعانة «، هذه المقدمة التي أوردها الأستاذ الطنجي لصاحب الكتاب تدل على أن الطنجي ألمَّ بالعمل في المخطوط إلماما . ولا شك أنه اشتغل عليه فترة من حياته ، لكنه لم يعمل على نشره ، وبذلك ضاع جهده كما أشار إلى ذلك الأستاذ العشاب، وقد استفاد منه وحققه مؤخرا الدكتور محمد سيد حنفي ،وصدر عن الهيأة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة سنة 1984 ؛

ـ نشر بحثا مطولا عن «كتاب التعازي والمراثي « للمبرد ونشرته مجلة « المورد» العراقية، المجلد الثالث ، العدد الرابع ، سنة 1974 (16) ؛

ـ كما كتب مقالات علمية لمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة بطلب من مديرها الأستاذ صلاح الدين المنجد ومقالات أخرى لمجلة مجمع اللغة العربية بدمشق .

أما بالاشتراك فساهم في تحقيق الكتب الآتية :

ـ حقق مع العلامة علال الفاسي نص « مختصر العين « للزبيدي الإشبيلي المتوفى سنة 379هـ ، وهو من منشورات مكتبة الوحدة بالدار البيضاء ؛

ـ حقق «ديوان الأمير أبي الربيع سليمان الموحدي « بالاشتراك مع ابن عمه ابن تاويت التطواني ومحمد بن العباس القباج وسعيد أعراب ، وصدر ضمن منشورات كلية الآداب ، جامعة محمد الخامس بالرباط .

ومع الأسف أغلب الكتب التي حققها العلامة محمد بن تاويت الطنجي ونشرت بالقاهرة أو أنقرة او إستانبول لا تتوفر عليها المكتبة الوطنية ،أما المتوفرمنها بالمكتبة الوطنية فهو :جذوة المقتبس، التعريف بابن خلدون ، أخلاق الوزيرين .

ويذكر الأستاذ أيمن فؤاد السيد المشرف على معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، أنه اطلع على مجموعة من دراساته وجذاذاته التي كان يشتغل بها قصد تحقيق كتاب الفهرس لابن النديم ،وكانت له مصدرا لتوظيفها فيما بعد لنشر هذا الفهرس الذي أصدرته مؤسسة الفرقان بلندن ، لكن المؤسف أن السيد أيمن فؤاد السيد لم يذكر اسم ابن تاويت في غلاف الكتاب مع اسمه ، وإنما أشار في مقدمة التحقيق إلى جهود ابن تاويت ، وهذا يُعَدُّ غبْنا في حق هذا العالم .

ويذكر الأستاذ أيمن فؤاد السيد أيضا أنه اطلع على مراسلاته للمعهد الذي كان ينجز له مصورات المخطوطات المتوفرة في وقف الديانة التركي بأوسكودار بإستانبول ، وكذلك مجموعة من صوره عبر مراحل حياته المختلفة .

رحم الله هذا العلامة المحقق الذي لمع اسمه في عالم تحقيق التراث العربي الإسلامي وكان له فضل السبق بالنظر فيه وجَمْع ما توصل إليه من مخطوطات في القاهرة وإستانبول وفي المغرب ، رحمه الله وأحسن إليه .

هوامش البحث :

1ـ منشورات النادي الجراري رقم 1، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء سنة 1986 ، ج1/ 109 ؛

2 ـ معلمة المغرب ، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا1995 ، الجزء 7 / 2251 ، 2252 ؛

3ـ صدر هذا البحث في «الكتاب التذكاري عن فقيد العلم والتراث :محمد بن تاويت الطنجي»، وصدرضمن منشورات مدرسة الملك فهد العليا للترجمة بطنجة سنة 1998 ، صص 118، 119 ؛

4 ـ نفس الكتاب التذكاري ، بحث الأستاذ العشاب صص 131، 133 ؛

5 ـ نفس الكتاب التذكاري بحث الأستاذ كنون ص 119 ؛

6ـ نفس بحث الأستاذ العشاب ، نفس الصفحة 119 ؛

7 ـ صدر الكتاب ضمن مشروع ارتياد الآفاق ، دون تاريخ ؛

8 ـ شهادة الأستاذ غلاب في نفس الكتاب التذكاري ص 78 ؛

9 ـ صحبتي للعلامة محمد بن تاويت الطنجي للأستاذ عزة حسن ، نفس الكتاب التذكاري صص 38 ،43 ؛

10 ـ نفس بحث الأستاذ عزة حسن صص 44، 47 ؛

11 ـ مقال «ذكريات» للأستاذ إبراهيم شبوح ، ضمن نفس الكتاب ص 81 ؛

12 ـ بحث « ابن تاويت والتراث الخلدوني « للأستاذ محمد بن شريفة ، ضمن نفس الكتاب ص 95 ؛

13 ـ نفس البحث للأستاذ ابن شريفة ، نفس الصفحة 95 ؛

14 ـ «مشروع رسالة وذكريات من الماضي « للأستاذ عبد الوهاب بن منصور ،نفس الكتاب التذكاري ص 34 ؛

15 ـ رحلة ابن خلدون : عارضها بأصولها وعلق حواشيها محمد بن تاويت الطنجي ، حررها وقدم لها نوري الجراح ، منشورات ارتياد الآفاق ، سلسلة الأدب الجغرافي ، دون تاريخ ، صص 12، 13 ؛

16 ـ هذه الكتب المشار إليها أوردها الأستاذ العشاب في ترجمة الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي ضمن الكتاب التكريمي ، صص 133، 134.

مراجع البحث :

ـ التأليف ونهضته بالمغرب في القرن العشرين، جزآن، للأستاذ عبد الله الجراري ، منشورات النادي الجراري رقم 1 / مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء 1986 ؛

ـ معلمة المغرب ، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر ، مطابع سلا 1995 ، ج7/ 2251، 2252 ؛

ـ الكتاب التذكاري عن فقيد العلم والتراث : محمد بن تاويت الطنجي ،أعمال ندوة نظمتها جمعية مكتبة عبد الله كنون ومجلة مواسم للثقافة والإبداع بطنجة في رحاب مدرسة الملك فهد للترجمة بتاريخ 16،17 مايو 1997 ، ضمن منشورات مدرسة الملك فهد العليا للترجمة بطنجة ، جامعة عبد المالك السعدي ، طبعة 1998 .

نص العرض الذي شاركت به في ندوة الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي بمعرض الكتاب الثامن والعشرين يوم الإثنين 5 يونيو 2023 / 16 ذي القعدة 1444 .

بين شموخ محمد داود ونباهة رضوان احدادو

أسامة الزكاري

محمد داود

بينما كانت الأستاذة حسناء داود منكبة على تقليب وثائق والدها الفقيه مؤرخ تطوان، المرحوم محمد داود، وقفت على وثيقة فريدة تعود إلى سنة **1952**، وتتعلق بإحدى معالم البهاء الثقافي الذي طبع مدينة تطوان وجعلها تحتل مكانة الريادة على مستوى بث قيم الإشعاع الحضاري والعطاء الثقافي على مستوى كل منطقة الشمال المغربي. يتعلق مضمون الوثيقة بسؤال طرحه شاب يافع لم يكن عمره يتجاوز الحادية عشر سنة، على الفقيه داود بعد الانتهاء من إلقاء إحدى محاضراته بمدينة تطوان. كانت العادة المعمول بها تقوم على أساس تدوين المتدخلين لتساؤلاتهم ولتعقيباتهم، ثم تقديمها للمحاضر لكي يتكلف بالرد عليها. وفي هذه الحالة موضوع الوثيقة التي بين أيدينا لم يكن الفتى صاحب السؤال شخصا آخر غير الرائد المسرحي الأستاذ رضوان احدادو، ذلك الطفل الذي حمل منذ صباه معالم النبوغ والتميز التي أثمرت ريادة غير متنازع حولها بخصوص حصيلة المنجز التوثيقي المرتبط بذاكرة الحركة المسرحية بشمال المغرب. برز الطفل رضوان احدادو بشكل لافت، لا شك وأنه أثار انتباه الفقيه داود، بدليل حرص هذا العالم الجليل والمؤرخ الكبير على الاحتفاظ بهذه القصاصة، ربما لتقديره لأهمية ما كان ينتظر الفتى رضوان احدادو من نبوغ ومن عطاء ومن تميز، الأمر الذي أكدته الوقائع الثقافية اللاحقة التي جعلت من احدادو واحدا من أبرز معالم البهاء الثقافي الذي تصنعه مدينة تطوان حاليا. فالرجل قامة ثقافية سامقة، لا يمكن أن نكتب حلقات المشهد الثقافي والإعلامي والجمعوي والسياسي الراهن لتطوان ولعموم منطقة شمال المغرب، بدون العودة لاستقراء جزئيات هذا العطاء في علاقتها بمسيم الأخلاق الرفيعة وصفة التواضع الخلاق وعلامة الرقي في السلوك وفي الموقف. وهي صفات أضحت متطابقة مع رصيد منجز الأستاذ احدادو على امتداد العقود الزمنية الطويلة للنصف الثاني من القرن الماضي ومطلع القرن الحالي.

وقبل التعليق على وثيقة الفقيه داود، نقترح إعادة نشر نصها بالكامل، ففي ذلك اختزال لشروط تحديد قيمتها وسياقاتها، ثم -أساسا- ارتداداتها العميقة على مجمل تلاوين المسار الفكري والثقافي للرائد احدادو. تقول الوثيقة: «نحن مدينون بالفضل لأستاذنا داود على ما بذله من مجهود لإظهار تاريخ هذه المدينة جليا ناصعا، عرفنا من خلال تاريخه رجالات هذه المدينة من قضاة وعلماء وقواد فضلا عن الأحداث. ولكن يبقى هناك سؤال، ماذا عن تاريخ تطوان الفني والأدبي؟ فبحكم أن تطوان لم تولد كما ولدت غيرها من المدن، فهي لم تتدرج من مدشر إلى قرية إلى مدينة، وإنما بناها المهاجرون مدينة محضة مرة واحدة. هؤلاء البناة لابد أنهم كانوا أهل حضارة وفن.. من هنا يبقى السؤال فارضا نفسه.. ماذا عن تطوان الأدب والفن.. ولكم الشكر والسلام. رضوان احدادو».

تبرز هذه الوثيقة -على اقتضابها- عدة نقاط بالغة الأهمية، ليس فقط في التوثيق للسيرة الذهنية للرائد رضوان احدادو، ولا -كذلك- للاحتفاء بالمؤرخ محمد داود، ولكنها -قبل ذلك- تشكل مدخلا لمقاربة عناصر الريادة الفنية والأدبية والثقافية لمدينة تطوان داخل محيطها الإقليمي والجهوي الواسع والممتد. تتوزع ملاحظاتنا بهذا الخصوص على الشكل التالي:

أولا- تبرز الوثيقة صفة الفقيه داود الاعتبارية، من موقعه كعالم مشارك، لم يكن ليكتفي بالتأليف وبالقراءة وبالبحث، بل اختار طريق التواصل مع الوسط المثقف لمدينة تطوان، وخاصة الشباب واليافعين. ولم يكن يجد حرجا في الاستماع، وحسن الاستماع، لليافعين، انسجاما مع سلوكه الراشد النابع من تربية الحركة الوطنية التي ظلت تعتبر العمل مع الفتيان والشباب أساس الانطلاق، ومنتهى المآل.

الوثيقة

ثانيا- تبرز الوثيقة -كذلك- معالما من المشروع التربوي للحركة الوطنية بتطوان في مواجهة مشاريع التدجين الاستعماري. لقد ظل العمل التعليمي والثقافي محور الفعل والمبادرة، من خلال تعبيراته المتعددة مثل إصدار الصحف والمجلات، وتأسيس الجمعيات الثقافية، وتنظيم الندوات والمحاضرات، والانفتاح على الفنون الحديثة مثل المسرح والسينما والموسيقى والتشكيل... باختصار، تعكس الوثيقة رهان رموز العمل الوطني خلال عهد الاستعمار على بناء الإنسان وتحصينه بسلاح المعرفة والإبداع والفن والثقافة.

ثالثا- تكشف الوثيقة الكثير من المعالم المميزة للسيرة الذهنية للرائد رضوان احدادو، إذ كان -منذ صباه- مهووسا بالانفتاح على أساليب إنتاج الفن وصناعة قيم الجمال. لم يكترث الفتى رضوان لتطورات المشهد السياسي بمدينة تطوان، ولا لأنظمتها الإدارية، ولا لتراجم نخبها في مختلف مجالات حياتها، ولكنه -في المقابل- انتبه لقيمة عطاء مدينة تطوان كعاصمة للعلم وللمعرفة وللفن وللإبداع. انتبه الطفل احدادو إلى قيمة التلاقح الحضاري الذي حمله المهاجرون الأندلسيون معهم عند تأسيسهم للمدينة، وأدرك -منذ البداية- أن المدن والمراكز الحضرية لا تُبنى -فقط- بسياسييها وبعسكرييها وبفاعليها الاقتصاديين والإداريين، ولكن -كذلك- بفنانيها وبمبدعيها. وكأني بؤضوان احدادو -في هذا الموقف- يحيل على مكونات تكون الهوية التاريخية لمدينة تطوان، كحاضرة أندلسية داخل بيئة حاضنة جمعت بين إرث أمازيغي عريق وبين تراث عربي إسلامي أصيل وبين مؤثرات رومانية وفنيقية ومتوسطية متنوعة وممتدة في الزمن.

رابعا- تثير الوثيقة دهشة لامتناهية لدى القارئ، بالنظر لقدرة كاتبها، هذا الطفل الذي كانه رضوان احدادو، على الكتابة بهذه اللغة الراقية، السليمة، والسلسة، والخالية من الأخطاء الإملائية والنحوية واللغوية. إضافة إلى هذا الخط الجميل والمقروء الذي يعكس مستوى تكوين صاحبه، إلى جانب اختزاله لنتائج العمل الذي اضطلعت به المدارس الحرة بتطوان، وعلى رأسها «المدرسة الأهلية « ثم «المعهد الحر»، في تعميم التلقين الجيد والتكوين المتين، داخل الرؤى الهادفة إلى بناء شخصية المتعلم وتحفيزه على اكتساب قدرات العطاء والإبداع والتميز. أتساءل الآن، هل بإمكان تلامذتنا في سن العاشرة أو الحادية عشر، الكتابة بنفس الطريقة وبنفس الخط؟ وهل بإمكانهم التعبير بنفس اللغة وبنفس قوة الأسلوب وسلاسته؟ وهل بإمكانهم تمثل نفس المضامين الثقافية والفكرية التي احتواها السؤال موضوع الوثيقة؟

خامسا- بالنسبة للمبدع رضوان احدادو، تشكل هذه الوثيقة زادا ثمينا يسمح بربط الصلة بين منطلقات التكوين داخل «خيمة» الحركة الوطنية، ثم بين معالم التميز والتفرد التي جعلت من رضوان احدادو فاعلا أساسيا داخل المشهد الثقافي المحلي والجهوي والوطني، من موقعه كأكبر متخصص في البحث في تاريخ الأشكال الفرجوية والحركة المسرحية بمنطقة الشمال، منذ ميلاد هذه الحركة وظهور إرهاصاتها الأولى منتصف القرن **19** عقب الاحتلال الإسباني لمدينة تطوان سنة **1859**، وإلى يومنا هذا.

سادسا وأخيرا- يفتح الكشف عن مثل هذه الوثيقة المجال لتوسيع دوائر البحث والتنقيب أمام محاولات كتابة حلقات التاريخ الثقافي لمدينة تطوان. تظل هذه الجزئيات حلقات مركزية لرصد انشغالات النخب المحلية ومظاهر اهتماماتها، مثلما تكشف عن مركزية العمل الثقافي داخل المشروع التحرري الذي رفعت لواءه الحركة الوطنية بالشمال في سعيها لتأهيل المجتمع وتحصينه ضد مهاوي الاستقطاب الاستعماري الإسباني.

رضوان احدادو

لقد تعاقبت أسماء على أسماء، وتجارب على تجارب، وهيآت على هيآت،... واستطاعت رسم معالم الهوية التحررية للحركة الوطنية بالشمال، بعد أن اقتنعت أن مواجهة الاحتلال الاستعماري لا تستقيم إلا بتقوية المجتمع وتحصينه بالعلم وبالمعرفة وبالثقافة وبالفن وبالإبداع. وفي ذلك استيعاب لعوامل انكسار مسارات النضال المسلح الذي انفجر بالريف مع محمد أمزيان ثم مع محمد بن عبد الكريم الخطابي، وآفاق دعم عطاء العمل الحزبي خاصة مع جناحيه، حزب الإصلاح الوطني وحزب الوحدة المغربية. كانت الرسالة واضحة، ومضمونها يتمركز على الجمع بين النضال السياسي من جهة، وبين الجهاد في المجالات المدنية المتعددة من جهة ثانية.

شكرا الأستاذ رضوان احدادو، لقد أعادنا الطفل الذي كنته في يوم ما، إلى مساءلة ثوابت العمل الوطني، بنفس القدر الذي جعلتنا نقف عند حجم التردي والاندحار الذي أضحى يطبع واقعنا التعليمي والثقافي الراهن.

تحت الأنقاض

عزيز أمعي

ظلام دامس يحجب كل شيء ويمنعه من الرؤية. عيناه اللتان استيقظتا بغتة، تحاولان أن تستأنسا بخرس المكان لعلها تميزان شيئا يجعل دماغه يتذكر ويخبره أين هو. بذلت عيناه جهدا سيزيفيا كي تخترق ستار العتمة لكن دون جدوى. لا خيط نور ولا ومضة بارقة. ظلام ولا شيء غير الظلام.

أنفه كان أيقظ من عينيه، تسربت عبر خياشيمه رائحة واهنة، بدأت دون هوية، ثم طفقت تتقوى، كانت مزيجا من تراب رطب ونسائم أنواع التوابل. شمرت الذاكرة عن ساعديها، وحفزت نورونات الدماغ على الاستيقاظ من سباتها. بدأت صور تتراءى على شاشتها، وحين تكاثفت واجتمعت قطعها المتناثرة لتحل عقدة اللغز، تذكر فجأة أنه يتواجد في دكانه. كان هذا الأخير يتواجد في أسفل عمارة من أربعة طوابق بأحد شوارع مدينة أمزميز التابعة لإقليم الحوز. المدينة صغيرة هادئة، يدثرها صمت النسيان وهي تقبع على قارعة التهميش الأبدي، مثلها مثل العديد من المدن الصغيرة والدواوير والمداشر في السهول والجبال.

صوت مذيع قناة رياضية ينتهي إلى طبلتي أذنيه خافتا واهنا. تذكر أنه كان يتابع أطوار مقابلة معادة بين فريقين أوربيين. كان يعشق كرة القدم بجنون، والإنجاز الذي حققه الفريق الوطني في دولة قطر جعله لأول مرة في حياته ينسى مبدأ الربح والخسارة، وراح يوزع الحلوى على الأطفال إثر كل انتصار لفريق الأسود، ووعد بأن يكون كريما أكثر إذا ما انتصر الفريق الوطني على فريق الديكة الفرنسي.

ها هو رداء النسيان يرتفع رويدا رويدا، كبقايا ندف ليل يبددها نور الفجر. تنسحب كفلول جيوش منهزمة لتتوسع دائرة استرجاع ما حدث. تذكر أنه تأخر ليلا في دكانه كالمعتاد، لم تكن لديه رغبة في العودة إلى البيت. علاقته بزوجته لم تكن على ما يرام. تتهمه بالبخل، ويدافع هو عن فلسفة الاقتصاد. تتهمه بإهمالها والتأخر طويلا في الدكان. فيجيب أن التجارة جد وطول صبر لمن أراد أن يطورها، ويحقق من دخلها ما يغنيه ويريحه في خريف العمر.

كان يفضل البقاء في دكانه أطول مدة ممكنة، ولا يعود إلا حين يضمن أنه سيجد زوجته قد أخلدت للنوم. يتناول إذا كانت به رغبة في الأكل، نصيبه من وجبة العشاء التي أعدتها لأبنائها. يتوضأ يصلي ما عليه من فروض ثم ينام.

الرائحة تتكاثف، وألم فظيع يسري في مفاصل جسده. حاول تحريك قدميه لم يستطع. بعد أن توضحت له الرؤية وبدأت ذاكرته تشتغل جيدا، تذكر أنه كان يستعد لإغلاق دكانه وقد شارف الليل على الانتصاف حين سمع دوي انفجار كأنه قنبلة ذرية انفلتت من رحم الأرض، واتلعت حممها كل شيء. هوى دكانه بما فيه، غاب عن الوعي وغرق في يم نوم عميق.

تساءل بعد استيقاظه، هل وقعت حرب نووية دمرت كل شيء وهو يقبع تحت أنقاض دكانه. هل فعلها فلاديمير بوتين، وأطلق قنابله النووية ليحسم معركته ضد أوكرانيا والولايا ت المتحدة، فدمر كل شيء. كان يسمع في قناة الجزيرة أن روسيا تهدد بالرد النووي، فهل تم ذلك بالفعل. طرد هذه الفكرة من ذهنه، وانتهى بعد تفكير غير طويل إلى أن العمارة، بلا شك، انهارت نتيجة هزة أرضية.

لم يستطع مواصلة التفكير أكثر، حثه الألم الفظيع على ترك التحليل والتفسير، والتركيز على جسده الذي كان يتوجع وينزف. انتهى إلى سمعه صوت جرافة، صوتها واهن. أخذ يصيح بكل ما في حنجرته من قوة، لكن دون فائدة. حاول النهوض، لم يستطع. بحث في لجة العتمة بيده عن هاتفه النقال لعله يعثر عليه، ويجعل منه سراجا منيرا، لكن الهاتف كان خارج متناول يديه. مر الوقت بطيئا مرعبا، أيقن أنه إذا ظل تحت الأنقاض سيموت لا محالة.

تذكر زوجته وأبناءه، تمنى أن يكونوا بخير. خشي أن يكون الزلزال قد هد المدينة ودمرها عن بكرة أبيها. نسي ألمه للحظة، وساوره سيناريو مرعب. تخيل زوجته وأبناءه تحت الأنقاض. نسي كل ما كان بينه وبين رفيقة عمره من شنآن، غمره خوف فظيع عليها وعلى الأولاد. تمنى أن لا يكون حل بهم ما حل به. أصبح أقصى ما يتمناه في هذه اللحظة سلامة عائلته، حتى وإن هلك هو. لام نفسه وحملها مسؤولية تأزيم علاقته بزوجته. كان عليه أن يكون صبورا، فهو الرجل والمرأة ضلع أعوج، ولا يصلح شأنها إلا الصبر وغض الطرف عن تذمرها وشكاواها التي لا تنتهي.

ألمان كانا يهصران جسده وروحه. ألم قدميه وقد تأكد له أنهما كسرتا، وألم أن لا تكون عائلته في مأمن من الزلزال. شعر بدموعه تنساب على خديه. لم يكن من الرجال الذين ينزل الدمع من عيونهم بسهولة، لكن في هذه اللحظة التي بدأ ييأس فيها من الحياة، أرخى لدمعه العنان دون أسف. بكى ثم بكى، وهو يتساءل، هل ستحدث معجزة ويتم إنقاذه، أم أنه سيموت دون أن يتمكن من توديع زوجته وأبنائه.

شخصيةُ الحيوانِ في الرِّواية

العربي بنجلون

«أنا قطة» اليابانية نموذجا!

«أنا قطة»!..أجل، لا تتعجَّلْ، قارئي، فتُصْدرَ حُكْمَك عليها، كأنْ تظنَّ هذه الرواية أو القصة موجَّهة للطفل، لمجرد أنَّ شخصيتَها المحوريةَ (حيوانية) أو لأنَّ صياغة عنوانها بسيطة.

وهنا تَكْمُنُ عبقرية الكاتب الياباني ناتسومي سوسيكي (1867-1916) الذي يتعوَّد أن يُوقِعَ قارئَه، منذ البداية أو عند العَتبة، في دَوَّامة التَّوَجُّس والشك...!

وإذا نظرنا مَليًّا إلى أعمال روائية أو قصصية أخرى، سنلحظ عناوينَها تنبني هذا الشكلَ الإيحائي، الترميزي، نذكر منْ جُمْلتها ((بيضة الديك)) و((الثعلب الذي يظهر ويختفي)) و((الأفعى والبحر)) لمحمد زفزاف، و((مذكرات دجاجة)) للكاتب الفلسطيني إسحق الحسيني، و((ديك الشمال)) و((معزوفة الأرنب)) لمحمد الهرادي، و((مزرعة الحيوان)) للكاتب الإنجليزي جورج أورويل، و((قلبُ كلب)) للكاتب الروسي ميخائيل بولغاكوف...وهناك من لازَمَ حيوانا معينا فيَ كتاباته، كـ((الحمير)) و((حماري قال لي)) و((حمار الحكيم)) للكاتب المصري توفيق الحكيم...!

وغالبا ما تنشأ علاقةٌ قويةٌ بين الكاتب وحيوانه، قبل أنْ يجعلَهُ بطلا لأعماله القصصية أو الروائية؛ فالكاتب الأمريكي (إدغار آلان بو) هامَ حُبًّا فَيَ قطته (كاترينا) لدَرجة أنْ نَصَّبَها (وَلِيَّةً عليه)! ..والكاتب محمد زفزاف، كَان يتميز بثلاثِ خِصالٍ: التروي في الكتابة والحديث، والصَّبر على سِهام النقد، وشُحِّ الكلام.

وهذه المزايا تتجَلَّى - كما قال - في سِلاحفه الثلاث، التي كان يعتني بها في بيته، خُصوصًا (الْغَيْلَمَ)!

وفي كل الحالات التي سردناهَا، يغدو ما يوصَفُ بالغَباء والبُطْء والْعصْيان عاقلا، وحكيمًا، وفيلسوفًا، يُوَجِّهُ الإنسانَ، ويُعْطي آراءً وأفكارًا حَصيفةً في قضَايا الحَياة الكُبْرى!

لا ينبغي أن ننسى أنَّ هذا الروائيَّ - ناتسومي - في نظر العديد من النقاد والأدباء، يعتبر أعظمَ كاتب ياباني في عصرنا الحاضر، أثَّر تأثيرا بليغا في الكثير من الكتاب اليابانيين؛ إذ كان من الجيل الأول الذي تلقى تعليما في شكله الغربي الجديد، وفي الوقت نفسه، تلقى تعليما يابانيا عتيقا، أي كان مخضرما في تعليمه، يقرن الحَداثة بالقدامة!..

ويكفي أنَّ نقادًا كبارًا قارنوا بينه وبين وليم شكسبير حينا، مُمَثِّلًا للجيل القديم، وبين جيمس جويس وفرانس كافكا حينا آخرَ، مُمَثِّلَيْنِ للجيل الجديد، وَتُوِّجَتْ أعمالُه الرائعة

بمَنْحه (الدُّكتوراه الفخرية)!..ومن هذه الثنائية الضدية (القَدامة والحداثة) كان ينهَل أشكالَهُ الفنية في الكتابة الروائية، ويعكسُ عبْرَهَا رُؤاهُ الفكرية، وإنَّ كان حضُورُ الحيوان في النص الأدبي، ليس جديدًا ولا غريبًا، بل نعثر عليه في كتاباتنا الأصيلة، الموغلة في القِدَم، مثل ((كليلة ودمنة)) لعبد الله بن المقفع، و((الحمار الذهبي)) للوكيوس أبوليوس، و((حكاياتُ إيسوب)) للعبد اليوناني إيسوب، و((أساطير مغربية)) للأستاذ علال الفاسي...!

في هذه الرواية، تعمَّد الكاتبُ أنْ يُبْدي بأسلوب ساخر مظاهرَ اجتماعية سيئة من خلال عيني قطة. ومَنْ سيتسلل إلى عُقَر دارنا، ليجسِّدَ تلك المظاهرَ الخفية غيرَ القطة؟!..طبعا، هناك حيواناتٌ أخرى، كـ(السَلحفاة) التي كان المغاربة يربونها في بيوتاتهم، ليدوِّنوا على دَرَقتها (وصيتَهم) لأحفادهمْ!..لكنَّ القطة، لها حضور قوي في (الذاكرة الشعبية) فهي تمتلك (سبعَ أرواح)!!..وتستطيعُ بسرعتها ومرونتها أنْ تنتقلَ من حِضْنٍ إلى آخرَ، دون صدٍّ أو حَظْرٍ، لتلتقط الحركاتِ والأنفاسَ والنَّوايا...!

و الرواية ((أنا قطة!)) نَصٌّ (خَديجٌ) لم يولَدْ شكلا تامًّا، بل على مراحلَ، أي غير مكتمل. ففي البداية، كان قصةً فقط، نُشِر في مجلة أدبية عامَ 1905. ثم مَطَّطه الكاتبُ إلى عشرة فصول متتالية، في ستِّمائة صفحة، ليُرْضِيَ صديقَهُ مديرَ المجلة، والقراءَ الذين أبدَوْا إعجابَهُمُ الباهرَ بها. ولم تَكتمل القصةُ لتَصْبحَ رواية ناضجة إلا سنة 1907. وربَّما كانتْ هذه الفصول التي حوَّلتَ القصةَ إلى رواية، أبدعتْ (شكلا فنيًّا آخرَ) في الكتابة، أتى (عَرَضيا) لم يكن الكاتبُ يفكر فيه، ولا خطَّطَ له من قبل، بدل أنْ تكون (خطًّا سرديًّا) أو (حَكْيًا متسلسلًا) من البداية إلى النهاية، مُرورًا بالوَسَط (الأزمة) كما نلحظ في الكتابة الروائية التقليدية، وحتى في القصة والمسرحية!

ولَم يكنِ الكاتبُ الوحيدُ بَيْن الأدباءَ الذين حوَّلوا قصصَهُمْ إلى رَوايات، فسيراتُهُمُ الذاتية، تُخْبرُنا بأنَّهُمْ خاضوا هذه التجربةَ، ونجحوا فيها، ومنهم الكاتبُ الكولومبي غابرييل غارسيا ماركيز، الذي نفخ نفسَهُ طويلا في قصصه، فأينعتْ نصوصًا روائيةً، نال إثرَها جائزة نوبل في الأدب سنة 1982 ومنها روايتا ((الحب في زمن الكوليرا)) و((مائة عام من العزلة))!

ولا يسعُنا، ونحن نقرأ قصةَ هذه القطّة اليابانية، إلا أنْ نتضامَنَ معها؛ فهي يتيمةٌ، ومشردةٌ، لم تَرَ والديْها يومًا، ولا إخوتَها، ولا تعلمُ من أين أتتْ، ومتى وُلِدَتْ؟!..وستظل مجهولةَ الْهُوِّيَّة، بلا اسم، تسير في الأزقة الحالكة الظلام، بين صناديق القُمامة، حتى عندما يعثر عليها أستاذُ اللغة الإنجليزية، ويَحمِلُها إلى بيته، لتصبحَ (قطَّةَ العائلَة) في عصر (ميجي1868-1912 م) الذي ستشهد في ظله اليابانُ نظامًا جديدا، العصر الذي عاشه الكاتبُ (قبل بدايته بسَنَة، وبعد نهايته بأربع سنوات) فكأنه يؤرِّخُ للحياة الاجتماعية المُخْتَلَّة في تلك الحقبة، بسخريةٍ لاذعة، لم تتحمَّلها (قطةٌ غيرُ عاقلة) فكيفَ بـ(إنسان عاقل)؟!..وبتعبير آخرَ، نرى قطةً (تائهةً) تروي أحداثا، وتنتقد أوضاعًا مُهْترئةً، وتُصْدر(أحكامًا نزيهةً)..يا للمُفارقة الصارخة، في تلك الحقبة التي شَهِدَتْ خلافا بيِّنا بين المتشبثينَ بالعادات اليابانية التقليدية، والمنساقين أو المنبهرين بالعادات الغربية التي غزَتِ اليابانيين، وأحدثتْ فيهم تأثيرًا في الثقافة والقيم الاجتماعية، منهمْ مَنْ قبلَها، ومنْهُمْ مَنْ رفضها. غير أنَّ اليابان (بفضل ذلك التَّلاقُح الحضَاري والثقافي) حقَّقتْ تَقدُّما وتطوُّرا علميين وفكريين وأدبيين عظيمين، ما كان لها أنْ تحقِّقَهما، لو بقيتْ مُنْغلقةً على نفسها!

الأسئلة الوجودية التي طرحتها القطةُ على نفسها، هي: مَنْ أنا؟!..وما هو اسمي؟!..ولماذا أختلف عن هذا الكائن الطويل، الذي يسير أمامي على رجلين، ويعلو جسْمَهُ رأسٌ؟!..وما علاقتي به؟!..وماذا أفعل في هذا العالم؟!..ثمَ لم تلبث أنْ أحسَّتْ بالدفء والْحَنان والأمان، عندما التقطتْها يدان من الأرض، وربَّتَتْ إحْداهُما قليلا على فروتها الناعمة. لكنْ، ما أثارتْ

فُضولَها في هذا الكائن، الذي يُسمُّونَهُ (إنسانا) هي (ثُـقْـبةٌ عريضةٌ) أسْفلَ وجْهِهُ، لها بابانِ مَرنانِ، عُلوي وسُفلي، وتـنْـفـثُ دُخانًا، أرْكَمَ أنْفَها برائحته الكريهة، وخَـنَـقَ نفسَها، يُسَمُّونَهُ (تَـبْـغًا)!

وفجأةً، ألقاها بحافَّة بركة، فشعرتْ بالغُرْبة، والبرد يقرسُها، والمطر يـبـلِّـلُها، والجوعُ يـنـهَـشُها، فلاذتْ بمنزلٍ فخمٍ. غير أن صاحبَهُ السيد سَنيزي، وهو أستاذ (اللغة الإنجليزية) سيُمْسك برقَـبتها، ويُـلـقّـيها خارجًا (اختيار اللغة الانجليزية له دلالة هادفة، وليس اعتباطا، أي لو كانَ أستاذا لليابانية، لما فعل ذلك) ولَمَّا تكرَّرتْ عمليةُ الطَّرْد، بلا رحْمةٍ ولا شفقةٍ، خَمْسَ مَراتٍ، أغمضتْ عينيها، وتركتْ أمرَها لـقَـدَر السماء، يـفعل بها ما يَشاء!

ولم يجد الأستاذُ بُدًّا منْ تَـبَـني القطة، التي تأبى أنْ تُغادرَ بيتَهُ، فأصبحتْ فيه عينا تلتقط كلَّ ما يجري فيه، سواء بين الزوجين، أوَ بيْن أفراد وأصدقاء العائلة الذين يشتغلون بالأدب والفكر والفن. وحَظِيَ الأستاذُ بحصة الأسد في مراقبته، ورَصْد حَرَكاته. فهُوَ، إنْ كان يقتني الكتبَ (الأجنبية) بأغلى سعر، ويقرأها ليلَ نَهارَ، ليتباهَى بها في لقاءاتِهِ، ويَخوض حديثا طويلا في الفنون، كالشعر والرسم والموسيقى، فإنّ القطةَ حَوَّلَتْهُ إلى شكل فني ساخر، حينَ يعجز عن تطبيقِ ما يقرأ ويَهْوى، لأنه كَسول، خامل، يخْلُدُ إلى النوم، بدل العمل والحركة، أي ما جَدْوى أنْ يقرأ كتبا أجنبية، وأنْ يَميلَ إلى الآداب والفنون، ولا يستفيد منها في سلوكه؟!

تحكي القطة عن لقائها أوَّلَ وَهْلة بهذا الأستاذ: كان (ما يسمى بالإنسان) غريبا عني، فالوجه الذي ينبغي أن يكون مثلي مُزَيَّنًا بالشعر، أملسُ كإبريق، وحين كنتُ أتضوَّرُ جوعا، أردتُ أنْ أصيحَ أو أبكي ليسمعَني، فيرأف بي، ويأتيَ ليساعدَني، لكنني لم أستطعْ، بل حاول صوتي أنْ يتسلَّل منَ فمي، فأصابه العيُّ!

ولمَّا أغْمَيَ عليَّ، وجدتُ نفسي في مَـنْـزِلَ ذلك الذي (يسمونه إنسانا) لقد تركني بين يدي خادمته، تحضنني وتعتني بي، ودخلَ إلى مكتبته، فأخذ كتابا من الرف، وقرأ منه بضعَ صفحات، ثم شعر بالنوم يُداعبُ جُفونَهُ، فترك الكتابَ يسقطَ من يديه، ولعابُهُ يندلقُ سُيولا عليه. هذه هي عادتُهُ اليومية، فأنا ـ القطة ـ أنشط وأفكرُ أكثرَ منه. لو وُلدتُ إنسانا لأصبحتُ مُدَرِّسة (إنجليزية) كسولة مثله. لكنني أفكر في هؤلاء البشر، الذين يغوصون في بحر الأنانية، فإذا أردتَ أنْ تعيش بينهم، عليك بالقتال، وإنْ كانوا يتظاهرون بـــالأدب والـحـب والأمـــان والصدق...!

لقد قـلبَ الكاتبُ الياباني ناتسومي سوسيكي رأسًا على عَقب المفهومَ السائدَ آنَذاكَ، وما زال لـيَوْمه، حَوْلَ كتابة الرواية، بل دَمَّر الهيكلَ (الرسمي) لجنسِها، ومنها (الحبكة) التي تُبرز براعةَ وَدقة الروائي في نَسْج الأحداث. ولهذا يقول في المقدمة:((يكمُن جوهرُ الكتاب في الفكاهة والحقيقة الساخرة لملاحظات (القطة) المختلفة، وليس في تطور القصة)) فلا توجد حبكة، ولا تطور في الوقائع الجارية فيها؛ إنما هناك مفارقة السخرية، والمدى البعيد الذي تقطعه شخصية القطة ببصرِها وبصيرتِها في الظروف الاجتماعية والعلاقات الإنسانية.

إنّ سردَ الأحداث في أية كتابة سَهْلٌ، لأنه يرتكز على رصدها حدثا حدثا، كما حدثَتْ، وكما سجلتها ودوَّنتها الذاكرة، لكنْ أنْ تلتقط العينُ ما وراءَ تلك الأحداث، من خلفيات فكرية ونفسية وسلوكية، وبالسخرية اللاذعة، هو الأمرُ الجسيم، الذي لا يتحمَّله سوى النادر من الكتاب. مثلا، عندما تقتفي القطةُ بنظرها شجارَ تلاميذ ثانوية وأساتذتها، تُثير الفجْوةَ بينَ الأجيال، والتطور الفكري الذي يُلْهب الصراعاتِ المحتدمة بين السابقة واللاحقة منها، لأن الحتمية التاريخية تفرض تطورا وتغييرا، وأنّ ليسَ هناك شيئا قارًّا ثابتا. وبالتالي، تعتبر القطةُ هذه الفجوةَ دليلا على عقليات متخلفة، لم ترتق إلى مستوى التفكير الكوني. لكنْ، مَنْ أحدث هذه الفجوة؟!..أليس الارتماءُ في أحضان الآخر، الذي فَتَح الأعينَ على عوالمَ حضارية، وأفكار وسلوكات أخرى؟!

والسؤال، الآن، هو لماذا نعثر في هذه الرواية، وفي كافة أعمال سُوسيكي، نقدًا ساخرًا للمدرسين والمبدعين، سواء في الكتابة أو الفن؟!..لقد لاحظ أنَّ هؤلاء هم رواد تطور مجتمعاتهم، لكنَّ دورَهُمْ لم يتعدَّ التنظيرَ والتبشيرَ، ولم يتجاوزْهُما إلى العمل والفعل، في عصر (ميجي) الذي عاشه الكاتبُ نفسُهُ، و(ميجي) اسمُ الإمبراطور الذي أمضى، مضطرًا، اتفاقيةً غيرَ متكافئة مع الدول الغربية، قصد تطوير التعليم، وتغيير نمط الحياة، في المأكل والملبس والمسكن... وبالتالي، كان على الكاتب الذي درس في اليابان وإنجلترا معًا، أنْ يـنـتـقـد تلك المرحلةَ الانتقاليةَ من خلال عـيـني قـطة، ويـنـأى بنفسه،

تاركا للقارئ حريةَ الاختيار بين ثقافتين يابانية وغربية.

والأمرُ نفسه، تجلى في رواية الكاتب المصريّ توفيق الحكيم ((عصفور من الشرق)) التي ترصد فشل العلاقة بين عاشقين، في إشارةٍ إلى الصراعات الحضارية، التي لم تستطعْ أنْ توفق بين مادية الغرب، وروحانية الشرق...!

أَوْ يُورِقُ الصَّدَى.. وَالصَّدَأُ

عبد اللطيف السخيري

عن منشورات دائرة الثقافة في الشارقة، صدر أخيرا ديوان الشاعر والناقد المغربي عبد اللطيف السخيري، والموسوم بـ «أَوْ يُورِق الصَّدَى.. والصَّدَأ»، يقع الديوان في **94** صفحة ويأتي في سياق استراتيجية النشر التي تشرف عليها دائرة الثقافة بحكومة الشارقة بتنسيق مع دار الشعر بمراكش. ويضم هواجس شعرية موزعة على الأقانيم التالية: اختتام سابق لأوانه، نرجس يئخن في مراياه، حنظلة يهجس برؤاه، صليل الماء، ومقدمة على سبيل الإدعاء.

الشاعر والناقد الدكتور عبداللطيف السخيري، من مواليد سيدي عثمان (الرحامنة 1978)، حاصل على شهادة الدكتوراه في موضوع: «الشعرية المغربية والتراث الشعري المشرقي: التلقي والتناص (986هـ1139-هـ)»، (كلية اللغة العربية بمراكش، 2014)، وهو خريج المركز التربوي الجهوي بمراكش، أستاذ التعليم العالي مساعد بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين. وقد سبق للشاعر والناقد السخيري أن توج بجائزة القناة الثانية للإبداع الأدبي في صنف الشعر الدورة التاسعة 2014، عن ديوان: «تراتيل السَّراب، وأقوال نَبيِّ الصَّلْصَال الأَعْمَـى»، وجائزة الشارقة للإبداع الأدبي، المركز الأول في مجال النقد، الدورة 21، 2017، عن بحث بعنوان: «شعرية التخوم: تنافذ الشعر والنثر في تجربة محمود درويش». والى جانب مقالاته ودراساته في مجالات الخطاب الشعري، صدر للسخيري ديوان «أقوال نبي الصلصال الأعمى»، منشورات مرسم، 2017، وكتب نقدية: «شعرية التخوم: تنافذ الشعر والنثر في تجربة محمود درويش»، دائرة الثقافة بالشارقة،**2018**، «المتنبي في مراكش: تلقي الوزير عبد العزيز الفشتالي لديوانه»، **2018**، «القصيدة وظلال المعنى: قراءات في الشعر المغربي المعاصر»، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش **2018**.

في تقديمه لديوان «أَوْ يُـورِق الصَّدَى.. والصَّـدَأ» يشير الشاعر عبدالحق ميفراني، مدير دار الشعر بمراكش، الـى أن الـشـاعـر والـنـاقـد عبداللطيف السخيري «يقتفي دهـشـة الـبـداهـة، فـي سعي حثيث لاقـتـفـاء أثـر الشاعر اليـوم، وهـو يسعى الـى فتح كوة على معالم القصيدة حيث التباسات المعنى، وهشاشة الـكـائـن. خـيـوط تسـتـل من مجازات اللغة، وقصائد ترتق خيوط عزلتها، وعالم يومئ من صدى «الصدأ».. هكذا تظهر التباسات العالم اليـوم، حين يصر الشاعر على انبجاس تلك «الهواجس»، والتي تسبك على الرؤى بعضا من وجع الشاعر.. «الشاعر المدثر بيأسه»، أو هكذا تخال القصيدة «حمالة» خيوط الدهشة، في إعـادة تحيين تلك الأسئلة التي أمست تؤسس أفق القصيدة المغربية الحديثة اليوم.. تلك المعرفة التي تستقصي أفق القصيدة وأسئلة الـشـاعـر، في استدعاء «لأنطولوجيا» السيري-الـشـعـري.. وأيـضـا فـي ترسيخ وعـي «حـاد» بأسئلة الكتابة الشعرية الـيـوم، وأفقها المعرفي و»كينونتها». ولعلها خطوة تومئ من بعيد، في تشكيل وشائج ممتدة بين «أنا» الشاعر وقصيدته، في ارتباط وثيق بدلالات الاغتراب المضاعف وسعي أن تصبح الكتابة سكن الشاعر و»كينونته»..»

ومن الديوان نقرأ:

هَلْ أَدَّعي أَنَّني شَاعِرٌ

يَخيطُ جِرَاحَ الْأَرْضِ بِإِبَرِ الْمَجَاز

يَرْفَعُ الْهَرْجَ عَالِياً عَلَى أَعْمِدَةِ النَّحِيب..

لِيَكْتَمِلَ الْمَشْهَدُ الْيَائِسُ مِنْ يَأْسِه..؟

لوحات.. قصائد.. وسرب عصافير

إدريس كثير

أيها المشاء ليس ثمة من طريق
الطريق يصنعه المشي.
أونطونيو ماتشادو

س

سليمان الدريسي شاعر وفنان تشكيلي من مواليد مدينة الصويرة/المغرب سنة 1976، حاصل على الجائزة الأولى في التشكيل المنظمة من طرف مؤسسة الإرث الأندلسي بغرناطة/اسبانيا سنة 2004.

أقام عدة معارض فنية داخل المغرب وخارجه (اسبانيا، ايطاليا، البرتغال، فرنسا، الرأس الأخضر، مصر...)

وهو أيضا شاعر صدر له ديوان موسوم بـ: "المشي في الشمس طويلا" بالقاهرة عن دار روافد للنشر والتوزيع (ط1/2023).

ترى من يشكل مدخل الآخر؟ التشكيل أم الشعر في تجربة الفنان الشاعر سليمان الدريسي؟

يمكن قراءة هذا الديوان انطلاقا من كونه بيانا أدبيا وفنيا فهو غنائيات درامية في مديح المشي تحت الشمس الحارقة، إهداؤه ممنوح ومهدى «للأقدام» من حيث هي دعامة لانتصاب القامة ومبتدأ للمشي.

في المنطلق الأنطولوجي كانت الناس جثثا مبعثرة ثم ركبت لها جماجم ورؤوس ثم لحّمت بعد ذلك لمدة، ثم ستفنى وتندثر وتتلاشى في الفراغ... هكذا يلخص لنا الشاعر البداية والنهاية الكونية، ويمنح لهذه الكينونة راهبا أو لاهوتيا ليفسر لنا شريط الحياة الكوميدي التراجيدي. في هذه التخوم التاريخية الغابرة كان الشعر يتم بطقوس العزلة والمشي تحت الشمس الحارقة، نحو ظلال شجرة «أركان» الأسطورية يستريح الشاعر تحتها وينتظر غروب الشمس ليعود وحيدا في الليل، يكفي هذا الطقس ليكون المرء شاعرا نبيلا. الشعر في تعريف سالب مطلق ليس إلا «وهما له أقدام [تمشي] وأجنحة « [بها يطير] (ص15)، فهو يمشي معنا فرحا بالجمال ويطير مرحا بالمطلق، الشعراء في الأرض قطاع طرق وفي السماء طيبون محبون للحياة، يحبهم الناس حبا جمّا. والشاعر هو صديق الكناية مثلما الفيلسوف هو صديق المفهوم، الشاعر مشاء هائم كما صاحب «كتاب الشعر» مشاء متأملا.

يستفاد من هذا الديوان أن هناك تقاربا وتماثلا وتشابها بين الشاعر والرسام والبستاني، ثلاثتهم يتوشحون بكنايات أقل ما يقال عنها إنها ثورية، صادمة، غريبة ومقلقة تخلخل الطمأنينة الكامنة في الأشياء كمدح ارتكاب الزلات الكبرى، والمشي في الشمس الحارقة طويلا، وسرقة القوافل في الصحراء، والتسكع في الملاح، وتجول شريط صور في جمجمة شاعر. تبادل الأدوار فيما بين هؤلاء ليس أمرا واردا فقط بل هو قائم حقا، علاقتهم هي علاقة الوجه بالقفا والأنا بصنوه والذات بمثيلها... حين يكون الواحد منهم بمزاج جيّد يدخل الآخر في نوبة بكاء شديدة، ولا يمانع الواحد منهم في ارتكاب جريمة شريطة الفوز بقلب الضحية، في حين يغازل صنوه عاشقته دون شروط، ولا يبتسم الواحد منهم إلا حين يكون في ورطة في حين مثيله يلعب البيانو على طريقة «برايل».

فهم شخصيات مفهومية بكنايات مفارقة: الشاعر يكتب قصيدة حب بالناي في سيارة نقل الموتى والرسام يعتقل المدينة في حقيبته كل مساء، يزيل عنها ما علق بها من قبح ثم يطلق سراحها. والبستاني قهرته إشاعة المأساة التي يحاول تسوية بشاعتها كل صباح، كلهم الواحد منهم هو الآخر"بمجرد أن أدخل إلى مرسمي/ أتحول إلى/بستاني» (ص22). عندما يمشون نحو حتفهم لا ينسون أبدا توزيع الابتسامات على كل حبة- أو حفنة - من تراب أو على قبس من نور أو لون أو على إشراقة لفظة أو عبارة تصادفهم في الطريق (ص 73).

تأخذ هذه المفارقات كل جذورها من كونهم يعيشون في مدينة لا توجد سوى في السماء. وعليه أقدامهم لم تطأ الأرض منذ مدة.

بين الشاعر الذي يحذّق المفردات والعبارات والبستاني الذي يشذب الأزهار والورود، يبقى الرسام الذي ينسق الألوان وينمّقها أعمى لا يرى إلا بأنامله، إذا كانت العصا هي امتداد عين البصير فالفرشاة هي امتداد عين الرسام، وإذا كان العمى هو فقدان البصر فالعمه هو عمى البصيرة، أما العماء فهو السحاب ما فوقه هواء وما تحته هواء. كيف يكون مصابا بالعمى من يربط بين الضوء وغيابه، من يرعى الغمام بعصا نبي بصير؟ يبصر الجسر الذي يربط بين السماء والأرض ولا ينفذ إلى أعماق النفس الإنسانية إلا بسلطان؟

شاعرنا شاعر فقير، يكتب بطريقة صوفية دادائية، يعشق الحبيبة ولم أقل الحقيقة والشمس الساطعة - ربما هي الحقيقة - ويحب "فان كوخ» ويرى في فقره الصوفي ما يراه الحالم الوسنان تائها في حقول القيلولة تاركا الحلم على الغارب الولهان فيرى ما يراه المهلوس في المنام. وأحسن هلوسة وأبلغها هي تلك التي تأتي للشاعر بعد ضربة شمس (من ص39 إلى 61) حيث ما زالت الأرض دائخة تحت أقدام الشاعر وما زال الطفل الذي صار بحارا يلعب في شرفة الحانة، ووجه "اسمهان" و"إديت بياف" مختبئين في لوحة زيتية، ولعازف الكمان أدنان واحدة أكبر من الأخرى بمرات المرات. أما القصائد فلا تكذب، إنما الشعراء يفعلون ذلك.

وأجلى هذيان هو ذاك الذي روّض أصابع الرسام (ص79إلى85). من أين جاء هذا الشاعر الذي يخرج من فمه المستحيل؟ وكيف أقنعت الفزاعة الرسام بنقلها إلى لوحة؟

"آه يا صديقي فان كوخ
لو لم تقطع أذنك
لما خرجت كل هذه العصافير من صدرك"

أليس الرسم هو إزالة جمرة من القلب وزرعها في القماش؟

وتبقى من بين الدوافع العميقة للإبداع: الموت والحمّى، ولربما هي أسباب جسدية لولوج ملكوت الروحانية.

يحكى أن ابن عربي كان طريح الفراش بسبب الحمى، فرأى في منامه أنه محاط بقوى الشر يريدون الفتك به، وفجأة ظهر ملاك قوي مشرق الوجه هلك تلك القوى ولم يبق لها أثرا، عندما سأله ابن عربي من أنت؟ قال أنا سورة يس، لمّا استيقظ ابن عربي وجد والده جالسا بقربه يتلو عليه سورة يس، فتح الله على ابن عربي فكانت صوفيته الأكبرية، كذلك الأمر في ديوان»المشي في الشمس طويلا».

ففي حديقة الموت (ص29) نعثر على هذه الصورة البلاغية للموت:

"افتح نافذة صغيرة على جلدك
وسترى أن الموت قد خبأ بيوضه كلها داخلك»

وفي "قبري يزحف نحوي فأضحك» (ص30) يقول الشاعر:

"وأنت تواجه الموت

اجلس قليلا
على حافة جسدك واضحك [..]
وأنت تواجه الموت
خذ معك حبّات الفرح اللذيذة..»

أما «الحمّى» فهي عنوان قصيدة كاملة (من ص **65**إلى ص**74**) إلا أن أسمها لم يذكر في صلب القصيدة بالمطلق، إذن المراد هو أثرها لا هي كزائرة في حد ذاتها، أثر الحمى ليس كأثر الفراشة وإن كان لا يرى فهو يدرك بالجسد، بنواجذ الجسد.

من اقتباس سهاد هذه الحالة ملاحظة أن الجدران يمكنها أن تتكلم وتعبر عن حالها بعد مائة عام، وأنها قابلة لأن تترقى في الرتبة من حائط إلى لوحة جدارية:

''**كل الجدران**
تتعلم الكلام
بعد
مئة عام»

والشيخوخة الظالمة تصيب كل شيء، حتى إن العصافير بعد المائة عام تتكئ على العكاكيز...

''**جل العصافير**
بعد السبعين
تفضل المشي
بعكاز''

لكن العشيقة لا تتكرر فهي فريدة من نوعها دائما، في مرحها كما في كدرها، وفيما بين نهديها تخرج القصائد كالعصافير:

''**أقول: أجنحة**
فيما هي ترد: سماء
بعد يومين
عثروا على عش مهجور بالمكان
وبقايا
ريش''

كل هذا الهذيان وهذه الهلوسات وهذا المشي الشاق الطويل وهذا التيه.. يقف في وجهه تحذير باذخ واضح المعالم، يحذّر الشاعر آمرا ناهيا من مغبّة العبث:

''**أيها الشاعر:**
لا تتجرأ
أكثر مما يجب
إن كنت
غير متأكد
فالبس جلدك
من جديد
دع ابتسامة
الله
في مكانها
وعد أدراجك''

إذن كانت الجرأة الشعرية بحساب، فيها العديد من الإشارت التي ستساعدنا على فهم المنجز الجمالي للفنان سليمان الدريسي.

وعليه يمكن القول أن هذا المنجز التشكيلي متأثر بالاتجاه التجريدي الرمزي، وإن كان في مرحلة سابقة من تطوره قد انخرط في الاتجاه السريالي لمّا رسم العديد من اللوحات تشبه موتيفاتها كائنات سالفادور دالي. وفي حوار معه نستشف أن منجزه قد عرف أساليب فنية كروماتية عدة نذكر منها إضافة إلى اللمسة السريالية الأسلوب الإفريقي حيث تبرز تيمة الجسد والرموز والكاليغرافيا وموضوعة جدران الأسوار كدعامة تاريخية للذاكرة والآثار المتبقية وهذا الأسلوب الأخير الذي سنحاول هنا تفكيك مكوناته ومسوّغاته.

التجريد شكل فني معاصر غير تجسيدي، له سنن خاص مختلف سواء في تحققه أو في معناه أو في خياله، ليس هدفه نقل الواقع ولا خلقه أو إبداعه إنما هو تجربة بصرية وانفعالية تهتم باللون وتشكيله. أما الاتجاه الرمزي فهو تيار فني تبدى في أوربا انطلاقا من **1886** تقريبا، واللفظ في الإغريقية يعني»جمع الأجزاء معا» للإشارة إلى جمع صور وموتيفات متباعدة فيما بينها، جمعها وربطها بواسطة الأحاسيس والمشاعر التي تثيرها في المشاهد لتبيان ماهيتها الروحية.

الشاعر الإغريقي ''جان موريـاس'' نشر ميثاقا آنذاك تحت شعار»إكساء الفكرة بكساء ملموس» مدشنا به ميلاد هذه الرمزية الفنية. هل يجوز جمع ما هو تجريدي وما هو رمزي فيما يسمى الدادائية؟

''دادا'' لفظة تعني الحصان لدى الأطفال أما معناها الراشد فيشير إلى الموضوع المحبوب أو الفكرة التي لا نمل من الرجوع إليها، وهي تيار ثقافي وأدبي و فني، من مؤسسيه تريستان تزارا (رومانيا) و جان (أو هانس) آرب (ألمانيا) يدعيان معا إلى ثورة مستمرة في الفن الأهم فيها إطلاق العنان للأفعال التي تمجد الحياة والعيش الطيب ورفض الاستكانة والخنوع. وأول ميزة تتميز بها هذه الحركة هي رفضها الشديد لكل الإكراهات والتوجيهات الإيديولوجية والاستطيقية والسياسية، وهي رد فعل عنيف ضد الحرب بكل ألوانها، شعارها الإبداع والسلام وحسن الجوار، من هنا فهي حركة طلائعية.

الدادائية حسب ''تزارا'' في الفن كما في الشعر تبدو من خلال جوابه عن السؤال التالي:

كيف تصنع قصيدة دادائية؟

هل هي نفس القصيدة التي ألمع إليها الشاعر حين قال:

''**أنا شاعر فقير / أكتب بطريقة دادائية**''... (**ص**33)

أجاب «تزارا»: خذ جريدة، خذ مقصا، اختر من هذه الجريدة مقالا يوازي طول القصيدة التي تريد أن تكتبها، قطع المقال، ثم قم بقص كل الكلمات التي صنعت ذات المقال وضعها كلها في كيس، خضها جيدا، بعد ذلك خذ كل أقصوصة واحدة تلو الأخرى، انقلها كلها إلى الورق بالنظام الذي اخترتها به في الكيس، إن القصيدة سوف تمثل أمامك، وها أنت الآن شاعر أصيل ذو ذهنية منطقية، حتى لو لم يتذوق قطيع الرعاع قصيدتك.

ليس القصد بهذا القول الحذلقة بل الحذقة سواء في الشعر أو في الرسم. أليس القص والقطع والاختيار والتلصيق والتقطيع والترتيب من دواعي النظم في الشعر؟ وضرورات اللون والتلوين و تلويناته والتركيب في التشكيل؟ يكفي أن نقرأ بعض قصائد تزارا «كالعزاء» أو «شعر حزين هذه الليلة» أو «ضوء الكون» لندرك أن الدادائية تنطلق مما هو تافه بسيط سوقي رخيص لتجعل منه شأنا رفيعا غاليا عاليا. أليس الشعر والتشكيل هما القدرة على الكشف عن الجمال في مثالب ذاكرة القبح، وجعل ما هو غير منظم ولا شكل له في أحسن ترتيب وتقويم؟.

هذه القدرة التحويلية بل الإبداعية هي التي لمسناها في القراءة أعلاه للديوان وهي نفسها القدرة التي سنحاول مقاربتها في الأسلوب الأخير المعتمد في لوحات الفنان سليمان الدريسي، نقصد بالأسلوب الأخير اللوحات التي ساهم بها في معرض موسم طانطان الأخير وما شابهها، رائده ومنبع إلهامه في ذات الأسلوب هو الفنان الإسباني أنطوني طابياس (**1923 / 2012**). يمكن القول أن السريالية والدادائية قد تحولت على يد هذا الفنان الكطلاني إلى الفن «غير المنظم» أو «الفن الذي لا شكل له» (انفورميل) أو ''اللاشكلانية''.

قد تعد اللاشكلانية تعبيرية تجريدية، أهم مقوماتها استعمال المادة والاعتماد عليها بكل أصنافها (خيوط أتربة رمال أسلاك..) وهي مواد خاضعة للتشكيل الكروماتي والحركات الجسدية، وهي أيضا خطاب يؤلف بين الصباغة والمادة، المادة والحركة مقابل الصدفة والارتجال هذه هي أسس الشعرية الصباغية ''اللاشكلانية''. الفن في منظورها إوالية تسمح بتحويل نظر المشاهد و تقريبه من حالات التأمل القصوى للواقع السطحي والعميق في آن واحد، والفنان في هذا السياق إضافة إلى كونه شاعرا أو بستانيا هو ناسك متعبد وهو داخل كل واحد من هؤلاء رغم ممارساتهم المختلفة، والمشترك بينهم طموح بلوغ إشراق باطني يسمح بكشف حقيقة هذا الواقع، وهذه الحقيقة لا توجد في منأى عنا بل هي كامنة فينا وفيما يحيط بنا .

إن زيارات الشاعر المتكررة للملاح الصويري وللمدينة العتيقة ركزت أسوار المدينة وجدرانها في ذاكرته فباتت هذه الجدران بعد مائة عام ناطقة معبرة عن أحوالها جاهزة لأن تتحول إلى لوحات، هكذا أمكن للفنان سليمان الدريسي تلخيص كل تاريخ موكادور في حفنة تراب توشح صدر لوحاته و جدارياته، وأمست حبة رمل فيها تكثف كل تاريخ هذه المدينة الألفية. إن تتبع آثارها من حيث هي وجود كان وإمحى أو اختفى قادرة على منحنا بقايا ذاكرة تصمد أمام المحو والتلف تزيدها اللوحة نظيرتها رسوخا وشموخا في الوجود. إن الارتقاء بهذه المادة الترابية أو الرملية إلى مستوى عال من التجريد والترميز هو منبع هذه «اللاشكلانية'' كما مارسها الفنان سليمان الدريسي، فلوحاته الأخيرة عبارة عن كولاج لأوراق من كتب أو مجلات وعبارة عن أرقام توجهها أسهم مختلفة الاتجاهات هي موتيفات تمنح للمشاهد المتأمل شحنات معبرة عن عمق وعبق التاريخ، يكفي أن ندعها تتحدث و تشير وتوحي لتفصح لنا عن حكمة لا مثيل لها لهذه المواد قدرة تعبيرية لا تنتهي.

الملاحظ أن جل لوحاته الأخيرة هاته تنقسم انقساما أفقيا فتنشطر اللوحة إلى شطرين متلاحمين، الأعلى بألوان مختلفة والأسفل باللون الأسود. وهذا الأخير يتخلله سهم في اتجاه نقطة عمق الأعماق.. وأحيانا يحدث الانقسام بصفين من الملصقات الورقية بينهما فضاء تغشاه غيوم سوداء وبيضاء و قد تتحول رسومات غرافيتية على الجدران إلى رموز تدل على الحضور القوي للموسيقى بالصويرة، وقد تتجابه سحابتان واحدة بيضاء والأخرى في الأسفل سوداء وبينهما سهم يحدد اتجاها ما وأرقام تذكرنا بيومية بوعياد الشهيرة، والعمق هو الرمال الشاطئية.. تناغم مجموع هذه الموتيفات هو ما يطلق عليه شعرية الرموز.

عن «الأرض اليباب» وتناصها مع التراث الإنساني

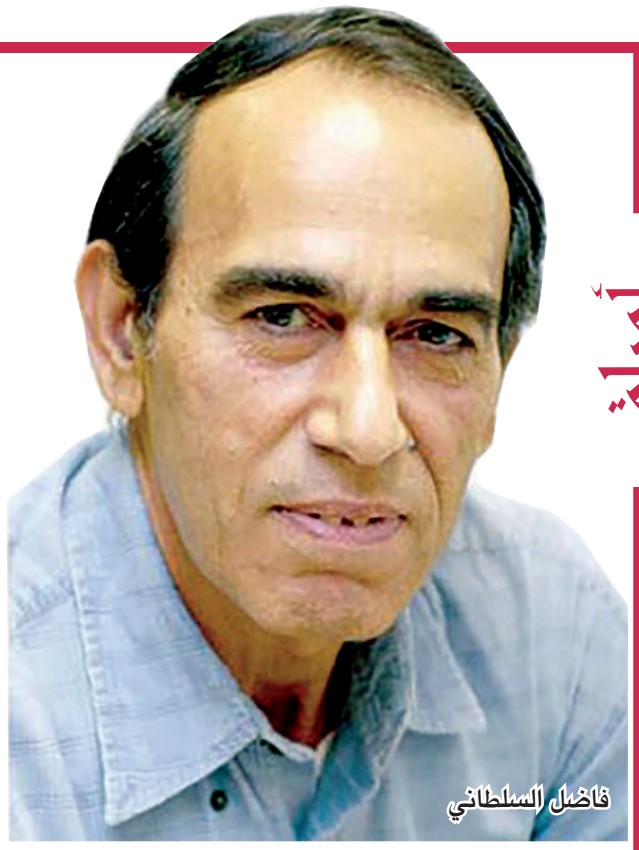
فاضل السلطاني

1

يحق القول بكل موضوعية، أن الشاعر والمترجم العراقي فاضل السلطاني في مؤلفه الموسوم بـ «الأرض اليباب» وتناصها مع التراث الإنساني(دار المدى/2020)، قد أبان عن كفاءة واقتدار فكري أدبي، كما ثقافة موسوعية وإلمام بالتراث الأدبي العالمي. وهو ما يجعل من مؤلفه إضافة، إلى التمثيل عن نموذج في الترجمة وإعادة الترجمة يستحق تأهيله لأن يعتمد في التدريس المرتبط بالترجمات الأدبية، سواء على مستوى تقويم وتصويب الأخطاء، أو المقارنة بين الترجمات المتحققة سابقا.

وإذا كانت «الأرض اليباب» ملحمة القرن العشرين كما ورد في تقديم المؤلف، فذلك يجسد الدافع الرئيس للاختيار من ناحية، والإضافة كما سلف. ذلك أن التصور الذي يتم الصدور عنه، إعادة النظر في منجزات ترجمية سابقة ليس بهدف نقضها ونقدها وحسب، بل تجديد الرؤية إلى نص عالمي شكل حسب بول ريكور مثال الأعمال العظيمة التي تظل في حاجة لتجديد ترجمتها، خاصة وأن أية إعادة في هذا السياق إحياء وبعث للنص، وبالتالي التذكير بكون النصوص العالمية تكتسب فرادة ديمومتها انطلاقا من إعادة ترجمتها. فكل ترجمة بمثابة جدة، كما الدعوة المفتوحة لتلق جديد، وكأن باعتماد الترجمة يكتب النص كتابة مغايرة في سياق كذلك، وزمن آخر. يقول الناقد السوري خلدون الشمعة في تقديمه الموسوم بـ:» الأرض اليباب على محك الداروينية»:

« فلاشك عندي أنه يمكن القول إن الترجمة كالكتابة تظل فنا يرمز بلا تردد، إلى رمزية الحكاية، رمزية لحمتها الرونق وسداتها الحساسية اللغوية.» (ص/6)

على أن الإعادة القصدية لا تتم اعتباطا، وإنما بالاحتكام لمرجعيات شكلت نواة التأليف وتجديد الترجمة. وأرى إلى أن أول هذه المرجعيات التي قدحت التفكير، ما أقدم عليه مترجمون سابقون منذ الستينيات، واستلزم المقارنة. وهي عملية ليست باليسيرة، إذ تقتضي إلى القراءة _ كما سلف_ الموسوعية الثقافية الشاملة. فالقارئ في هذه الحالة يفيد من الترجمة الجديدة، وعلى السواء من ثقافة الترجمة. الثقافة التي يستدعيها الظرف وسياق إنتاج المعنى في النص. وأرى من ناحية ثانية، أن الحساسية الشعرية التي يتفرد بها الشاعر فاضل السلطاني كما تنم عن ذلك قصائده، بمثابة العامل المضاعف الذي يضفي على الترجمة قوتها الأدبية. يرد في تقديم خلدون الشمعة:

« لاشك عندي أن سجال فاضل السلطاني مع التناص، وإلماعات الأرض اليباب، سجال مثير للإعجاب. كما أنه يدل من حيث اكتماله على سيطرة معرفية متميزة على جل ما يتصل بإليوت ونظريته في التراث. فهو يناقش بدءا من مرجعية النص الإليوتي ست ترجمات عربية للأرض اليباب : «لويس عوض وأدونيس ويوسف الخال وعبد الواحد لؤلؤة وماهر شفيق فريد وتوفيق صايغ.» « (ص/8)

2

هندس فاضل سلطاني كتابه/ترجمته بإخضاعه لترتيب أستهل بمقدمتين، إلى الترجمة الجديدة المقترحة لنص إليوت والمذيلة بتوضيحات وتفسيرات وشروحات ضافية، أسهمت في إغناء وإثراء الترجمة، علما بأن بنية القصيدة تتوزع

على خمسة مقاطع متفاوتة الطول هي على التوالي: دفن الموتى، لعبة الشطرنج، موعظة النار، الموت بالماء وماذا قال الرعد. ولعل من الملاحظات الثاقبة عن استهلال القصيدة، كونه يرتبط بـ»نيسان» (أبريل). وهو المفتتح ذاته المعتمد في بداية رواية جورج أورويل (1984). يرى خلدون الشمعة:

«فإذا كانت ملحمة إليوت ترصد في مستهلها «نيسان أقسى الشهور»، فإن الجملة الأولى من رواية أورويل تبدأ على نحو مواز برصد شهر نيسان: « كان يوما باردا في نيسان، وكانت الساعات تدق الثالثة عشرة.» (ص/8)

وهي الملاحظات التي سيوسعها الشاعر فاضل السلطاني بالإشارة إلى إبداعات أخرى اختطت المنحى ذاته. كمثال ما جاء به الشاعر «تشوستر» و الروائي «ديفيد كوبرفيلد». ومثلما تحققت الترجمة

صدوق نورالدين

الجديدة ل»الأرض اليباب»، تمت في الفصل الثاني _ إذا حق _ ترجمة هوامش إليوت المتميزة بالتعدد والتنوع، حيث _ في تصوري _ يصعب تلقي النص دون الوقوف عليها مادامت تكشف ثقافة إليوت الموسوعية التي أسهم في توظيفها بكفاءة ومهارة، مما أضفى على النص ثراء من حيث المعنى _ كما مر _ وبالتالي جعل الاهتداء لهذا المعنى قرين المعرفة بهذه المرجعيات التي تستدعي المقارنة والتأويل الموضوعي السليم. ألم يقل إليوت:

«الشاعر الجيد هو من يعرف كيف يسرق، أما الشاعر الرديء فهو الذي يقلد.» (ص/15)

وأفرد المؤلف فصلان عكسا كفاءته الثقافية وقدراته في/ وعلى الإحاطة الشاملة بالنص وترجمته له، فأقدم في أحدهما على تثبيت شرح عام لمضمون القصيدة بناء على المقاطع المشكلة لها، وفي ثانيهما وقف بالرصد الدقيق على الأخطاء والمزالق التي سقطت فيها الترجمات السابقة وهي كثيرة جدا. وختم السلطاني الكتاب/ الترجمة بإيراد نبذة تاريخية عن السياقات التاريخية _ إذا حق _ لكتابة القصيدة، حيث ترجمها عن كتاب «قصائد تي. أس. إليوت» لكريستوفر ريكس وجيمس ماكيو. ومن ضمن ما ورد فيها:

«نشرت «الأرض اليباب» للمرة الأولى من دون هوامش إليوت، في شهر اكتوبر/ عام **1922** في مجلة «كرايتريون» الأميركية. وأعيد نشرها في مجلة «دايل»، الأميركية أيضا، في نوفمبر 1922. ثم نشرتها منفصلة دار نشر «بوني» و»ليفرايت» في نيويورك مع هوامش إليوت، في الخامس عشر من ديسمبر/ كانون الأول/ **1922**(ألف نسخة فقط)» (ص/109)

وذلك بالإضافة في نهاية الكتاب/ الترجمة، إلى تأثيرات وتضمينات طالت الأجزاء الخمسة للقصيدة.

3

ويمكن القول بأن من السقطات التي وقع فيها المترجمون المذكورون ما يرتبط بالعنوان، وهو مستوى أول أثار اختلافات متعددة ومتباينة حسمها فاضل السلطاني بالقول:

« ماعدا د. عبد الواحد لؤلؤة، يوسف اليوسف، اللذين ترجم العنوان بـ»الأرض اليباب»، اختار المترجمون الأربعة عنوان «الأرض الخراب». لكن صفة اليباب لأرض إليوت، هي الأدق. صحيح أن كلمة اليباب تعني في القاموس العربي الخراب، لكنها تعني أيضا اليباس. القصيدة كلها تتحدث عن أرض قاحلة، جافة حتى من قطرة ماء، فلا شيء هناك غير الصخور. والأسطورة الآرثرية التي استند إليها إليوت، تشير هي أيضا إلى الجذب والجفاف.» (ص/57)

وفي مستوى ثان، ما يتعلق ببيت شعري ورد باللغة الألمانية ضمن القصيدة حيث صيغت ترجمته لدى لويس عوض على لسان رجل، بينما الأصوب كونه يرد على لسان امرأة :

«هذا البيت بالألمانية وجاء في ترجمة لويس عوض:
ما أنا بالروسي، وإنما أنا ألماني، من ليتوانيا.
بينما المتكلمة امرأة، وليس رجلا. والترجمة الصحيحة: ما أنا بروسية بل من ليتوانيا، ألمانية أصيلة..» ص/73_74)

ويصعب - كما سلف- إدراج نماذج أخرى، من ناحية لضيق المساحة، وأخرى لأن الوقوف عليها يستلزم إيراد الأصل الأنجليزي، ثم مقابله في الترجمة الأولى، والمقترح بما هو تصويب لخطأ في الفهم كما الصوغ السليم.

4

تبقى الإشارة - وكما ورد في التقديم - إلى كون هذا الكتاب /الترجمة، الدلالة القوية عن جهد إضافة، وثقافة موسوعية تجسدت في الحفريات التي أقدم عليها الشاعر فاضل السلطاني، ومست التراث العالمي برمته.